فضيلة الفاروق

أقاليم الخوف

رواية

www.mlazna.com
^RAYAHEEN^

فضيلة الفاروق

أقاليم الخوف

رواية

"هذه المرة سنذهب حيث المسيحيون يذبحون المسلمين!
بقول مازحاً! ثم في مرة أخرى يقول:
هذه المرة سنذهب حيث المسلمون يذبحون المسيحيين!
ثم كثيراً ما يردد ساخراً من سذاجة الإنسان:
لا يوجد مكان يذبح فيه الملحدون مثلاً، أو يذبح فيه المجرمون، أو يُذبح فيه الشواذ! (ثم يستطرد):
أوه.. الشواذ لطفاء جداً إنهم لا يؤذون حتى نملة!
(يضحك) ثم يواصل:
لكني هذه المرة سأذهب حيث اليهود يذبحون المسلمين والمسيحيين معاً!
في تلك المرة ذهب إلى غزة!"

(من الرواية)

ISBN 9953-21-474-3

رياض الريس للكتب والنشر

www.mlazna.com-RAYAHEEN

لا أحد يعرف الشرق كما أعرفه أنا.

ارتويت بمائه، وهوائه، وترابه. تذوّقته، وتناولته، حُلوَه ومرّه. تنفسته، واستنشقت رائحته حتى ما عدت أرغب في رائحة تملأ رئتي غير رائحته. عانقته، طوّقته، أخذته بين يدي، وملأت أحضانيَ به، ومارست معه كل أنواع العنف والعشق. مارست معه الحب الذي يبلغ أقاصي اللذة، عرفت الذروة معه، عرفت نهم التزاوج معه وخبرت كل ما كنت أجهله في الحياة معه.

كنت الأنثى التي نزلت من الجنة إلى الأرض.

أكلت الثمار المحرمة، رغبة في امتلاك الكون في جنّتي تلك، أكلتها وأقلعت بعورتي المكشوفة نحو الشرق.

كنت أظن أن الشرق مجرد جسر للعبور.

www.mlazna.com-RAYAHEEN

جحيم ما ربما..

عقاب ما..

معبر للعودة إلى جنتي من جديد محمّلة بالثروة، وبصكوك غفران وهمية.

أقلعت.

نيويورك، باريس، بيروت..

غادرت ناطحات السحاب، ومطارات الأحلام، والأنوار التي تغمز، وتضحك، وتغري. تركت خلفي أرباباً وأرباباً، يجلسون فوق هذه الأرض، وكأنهم يجلسون أمام لوح شطرنج، ويلعبون..

يربحون ويخسرون.

يخططون، يهجمون ويقتلون.

تماماً كما في حلبات الصراع القديمة في روما.

كل رب من هؤلاء الأرباب يرمي مقاتليه في حلبة الموت، ويتابع.

القتال حتى الموت من أجل الإمتاع! هذا هو العالم الذي جئت منه.

عالم الأرباب الذين يسيطرون على العالم، ويحركون البشر مثل عرائس الكراكوز.

قبل بيروت..

وقبل الثاني عشر من تموز/ يوليو ٢٠٠٦.

كنتُ أحاول أن أُضَمّدَ جراحي من لوعة الشرق حين تعرضنا لانفجار عنيف إثر هجوم انتحاري في «شرم الشيخ» بمصر، ذهبت ضحيته والدتي، وأخي الوحيد أسعد، والذي ظل معطوباً، يعاني الإعاقة في قدميه.

أنا نجوت.

نجوت بحواسي الخمس، وقدمي، وذاكرتي، وصوتي، وهلعي، وخوفي، وعذابات والدي..

أنينه الليلي الدائم، كثيراً ما جعلني أشرب كثيراً..

وأدخن.

أدخن وأفكر.. وأصغي لأنينه.

حين أجلس قبالته، يتوقف عن التوجع، يتحدث عن بيروت، عن جدي وجدتي اللذين لم أعرفهما أبداً، عن صديقه «أنطون»، عن ابن عمه «ريمون» وعن الضيعة التي أذكر بعضاً منها، وأنسى الكثير.

بعيداً في الماضي..

كنت في الخامسة من عمري حين زرت بيروت معه، أخي أسعد الذي كان يكبرني بثلاث سنوات ظلّ يتذكر أشياء أكثر مني.

www.mlazna.com-RAYAHEEN

أبي لم تنتقل روحه من مكانها أبداً، ولدت في ضيعته الجبلية في لبنان، وظلت هناك.

في اللحظات الأخيرة من حياته، كان ينظر إلى زاوية في الغرفة ويتحدث كأنه في كامل وعيه: «ليش ما شحّل عبود الزيتونات بعد؟».

فسألته: «أي زيتونات؟».

فأشار إلى خزانة ثيابه، وأردف: «زيتونات هيدا جلّ بابا!».

كانت روحه قد سبقته إلى هناك وهناك مات أظن.

كنا نذهب إلى القاهرة، أو دمشق، أو عمان.

لكننا غالباً ما نسافر جميعاً إلى القاهرة لأن والدتي تحب ذلك.

عتمة «سياتل» التي كنا نقيم فيها كانت تجعل أمي مكتئبة طيلة السنة. في القاهرة تتشبع بالشمس، والدفء.. وأجواء الشرق.

هي الأخرى ماتت كما تمنت دوماً، بشعلة تشبه الشمس، وبكثير من الدفء، في الشرق الذي طالما أحبته.

□□□

الحرب في لبنان هي التي حرمتنا من زيارته ثانية. لكن والدتي كانت تقول إن والدي كان يتفادى الاصطدام بالتغيرات.

وصلتُ أول مرة إلى بيروت في خريف ١٩٩٣، حين كانت حرب لبنان تحط أوزارها.

جئتُ أنا وزوجي أياد، الذي قرّر العودة نهائياً إلى لبنان، بعد أن قضى سبعة عشر سنة في نيويورك، وكنتُ قد قررت أن أبني أسرة معه، تعطي الحياة لجذوري اللبنانية، لكني سرعان ما غيّرتُ رأيي، فقد وجدتني أسبح في هلام من الصدامات الثقافية والفكرية مع بعض أفراد عائلته، ثم وجدتني أكتشف «أياداً» آخر، غير الذي عرفته في نيويورك.

أخته شهد، لا تكفّ عن إلقاء درسها الممل عن محاسن الإسلام، ودعوتي إلى اعتناقه، وهي كلما دخلت علينا أحضرت لي قطعة من الثياب هدية، وتحرص أن تكون القطعة محتشمة، بكمّين طويلين، وطول يغطي ما تحت الركبتين. كانت تحرص أيضاً أن تحضر طبختها باكراً، لتحضر لي نصيبي منها أنا وأياد، حتى لا أقف في المطبخ، أو أطلب أكلاً حاضراً من أحد المطاعم القريبة لبيتي.

ظلّت زياراتها اليومية لي مستمرة، إلى أن طلبتُ منها أن لا تزعج نفسها بالطبخ، وإحضار الطبخة لي وكأنني فتاة قاصر تحتاج لمن يهتم بها. إذ توقفت عن فعل ذلك، لكن بالمقابل أصبح أياد يمر بعد انتهاء دوامه لعندها، يتناول الغداء ويعود إلى البيت!

أيام الآحاد، كنا نجتمع في بيت والدته الحاجة «أم وهب» ــ نسبة إلى ابنها البكر وهب ــ والتي يناديها كل أطفال العائلة «تيتا»، ونجلس حول طاولة كبيرة، نتناول ما تطبخه، ونثني عليها لأن طعامها هو الأطيب في العالم بأسره.

أم وهب أيضاً، رغم طبيعتها، وبساطتها، وعفويتها لا تتوقف عن الدعاء لي لينعم عليّ الله بالهداية فأعتنق الإسلام، قبل أن أموت

لأحظى بالجنة، وهي ترفض أن تناديني باسمي «مارغريت»، وبعد أخذ وردّ ومناقشات بينهما وبين شهد، اختارت لي اسم «مارية»، فهو أخف لفظاً، ولا يسلخني عن مسيحيتي، وهو غير ذلك اسم إحدى زوجات نبي الإسلام محمد، الذي حين يذكر اسمه يرفق بترديد الصلاة والسلام عليه.

أُعطيت شهد صلاحيات كثيرة في العائلة، فرأيها جد مهم قبل اتخاذ أي قرار بالنسبة لكل أفراد العائلة، على الرغم من أنها أنثى، وهذا نافى تماماً الفكرة التي كونتها عن النساء العربيات.

فشهد التي لا يظهر منها غير الوجه واليدين، هي العقل المدبّر وقلب آل منصور، ولعلّ ذلك ليس فقط لقوة شخصيتها، بل لثراء زوجها الحاج عبد الله، الذي منحها سلطة المال، فهو تاجر أجواخ. وله عدة محلات كبرى في كل نواحي لبنان للألبسة الرجالية، في كل سفرة له إلى لندن أو ميلانو، أو الهند يحضر لها هدايا فاخرة، تزيد من وزنها الاجتماعي في محيطها اللبناني الضيق الذي يعطي أهمية كبيرة للمظاهر.

صحيح أنها تغطي رأسها بمنديل، وترتدي معطفاً طويلاً يغطي كامل جسدها، وجوارب صيفاً شتاء، ولكن المنديل من الحرير الفاخر الذي يحمل توقيع أهم مصمم أزياء في العالم، والمعطف من نوعية قماش فاخرة، مصمم ومخاط لها خصيصاً من طرف أحد مشاهير الخياطة في بيروت، والحذاء بثمن يعادل معاش شهر كامل لأحد موظفي زوجها، وحقائب اليد تحف في حدّ ذاتها، أما مجوهراتها، فلو بيعت في مزاد علني لحلّت مشاكل أطفال المخيمات والأحياء الفقيرة كلها في لبنان.

أياد الذي عشتُ معه أحلى أيامي في نيويورك، والذي عاشرته وساكنته ثلاث سنوات قبل أن نتزوج كان شاباً طموحاً، ضحوكاً، حيوياً، وصحبته ممتعة. كُنّا نركض معاً، نأكل معاً، ننام معاً، ونحلم معاً أيضاً، ولم يكن عمله يأخذه مني، ولا عملي يبعدني عنه. حين عدنا إلى بيروت، أصبحت وحيدة في الغالب. إذْ هناك دوماً ما يُبعده عني.

أصبح يسهر أيام السبت مع أصدقاء قدامى، تعرفتُ فقط إلى أحمد، وجاك من بينهم، وكلاهما مطلّق، ويعيش على هواه. من بعد استقرارنا في بيروت، توقف أياد عن إحضار الكحول إلى البيت، وأصبح يشرب مع أصدقائه في خلال سهراتهم التي تمتد حتى مطلع النهار أحياناً.

وقد أثنت شهد أكثر من مرة عليه، حين كانت تزورنا، وتتفحص زوايا البيت بحثاً عن آثار المنكرات.

ــ يعني تبت خيّي؟

تسأله، فيؤكد لها:

ــ واللّه تبت أختي، إن شاء الله فوت عَ جهنم، إذا عم كذّب.

ولكنه كان يكذب، وشهد بحاسة العفاريت التي تملكها تزم شفتيها، وتردد بفوقية غريبة:

ــ كرمالك ختي، شو كرمالي؟؟

تنتهي أحاديثهم في هذه المواضيع عادة بانكسار الجميع أمام شهد، وأم وهب، ويؤكد الجميع حسن سلوكه كي لا يُلعلع صوت شهد

في الحي كله، ولينال الجميع رضى أم وهب. رضى الأم في بيت آل منصور، وكل العائلات المسلمة التي عرفت، هو طريق الفرد نحو الجنة، وأمّا من لم ترضَ عليه أمه فعواقبه وخيمة.

أبناء الحاجة أم وهب، ستة، هم: وهب وشهد، وشمائل، وأياد، وجيلار، ونورا وكلهم يحترمونها، ولا يغضبونها، وإن تطلب الأمر أن يكذبوا عليها فهم يفعلون ذلك. فهي مثلاً لم تعرف بموت أخيها سليمان، الذي هاجر إلى أميركا منذ أكثر من أربعين عاماً، حيث اتفق الجميع على أن سليمان أصيب بالطرش، ولهذا لم يعد يكلمها بالهاتف. فإذا بدأت أم وهب بالبكاء، فلن تتوقف، وقد تذوب كلها لتتحوّل إلى دموع.

الغريب في آل منصور هو سرعتهم في التلّون، إذ فقط شهد لها وجه صارم واحد، وتعيش حياتها كأنها ضابط سام في الجيش. غير ذلك، فالحاج وهب المواظب على الصلاة والصيام وتقبيل يدي والدته، يعشق النساء أكثر من أي شيء في الدنيا، وزوجته التي تتخبط كالمعلقة بين علاقاته، أتقنت مهنة التجسس بسببه، فبمجرد أن يعود إلى البيت، تسرع إلى ثيابه، تتأمل الأكتاف لترى آثار الحمرة، وبقايا الماكياج عليها وتشمشم البدلة من فوق إلى تحت بحثاً عن رائحة الأنثى التي كان معها وعطرها، وهي كي تهينه، وتوهم نفسها أنها أحسن منه، تصرخ في وجهه: «روح تشيّع، وتزوج متعة أشرفلك».

وهي أمام شهد وأم وهب، تتحدث عن زوجها بمحبة مبالغ فيها، ولكنها تصفه دوماً بـ «الواطي» حين تتحدث مع أهلها.

بين شهد وأم وهب تواطؤ غريب لكبح مشاعر الآخرين، فحين

تشتكي سلوى زوجة وهب من بعض تصرفاته، تنهرانها كما لو أن الإفصاح عن بعض مشاكلها خطيئة:

«خَبّي سِرّك، ما بيجوز تحكي عن أب أولادك بها الطريقة؟».

ولأن شهد لا يمكنها سوى أن تكون أفعى سامة تضيف ببرود: «الشكوى لغير الله مذلّة»، فتغلق سلوى فاها وكأنها تلقت صفعة على شفتيها.

شمائل مختلفة تماماً عن شهد. ربما لأن زوجها رجل عادي ولا حول له ولا قوة، فقد اكتفى بشراء بيت وسيارة من عمله كموظّف لدى صديق لوالده، وحين أفلست الشركة، حوّل سيارته إلى تاكسي، ورضيَ بالقليل.

بالنسبة لآل منصور، زوج شمائل وصمة عار في تاريخ العائلة، مع أن الرجل متدين، ومحترم، ومثقف، ولا يخون زوجته.

شمائل بالمقابل، سيدة تشبه النساء العاديات ولا شيء يميّزها، سوى أنها سيدة قوية، تعتمد على نفسها، وليست بحاجة لأحد.

أمّا حجابها فهو الحجاب الذي ترتديه أغلب النساء، بنطلون، وقميص عريض يغطي المؤخرة والفخذين، ومنديل بسيط. وفي أكثر من جلسة كانت تختلف مع شهد حول شكل الحجاب، فبالنسبة للأولى الحجاب يعني سترة الجسد دون الدخول في التفاصيل، أمّا الثانية فتصرُّ على أن الحجاب هو المعطف الواسع الذي ترتديه. والمنديل الذي يغطي نصف الجبين ونصف الذقن، وإخفاء القدمين بالجوارب. يرتفع صوت شهد حين لا تجد ما تقوله:

www.mlazna.com-RAYAHEEN

ـ والله ما حدّا حرّف الدين غير أمثالك! أما شمائل فتظل محافظة على هدوئها وتجيبها ساخرة: «يا ستّي، ما دام حجابك شرعي ومطمنة فكرك شو دخلك فيني؟».

لم أتعرف على جيلار، ولا على نورا، ولكني رأيت صورهما في صالون البيت، كل واحدة منهما ترتدي ثوب التخرج من الجامعة.

أمّا جيلار، فقد تزوجت ابن عمتها مصطفى، وسافرت معه إلى الكويت حيث يعمل، وأمّا نورا فقد استقر بها المقام أيضاً مع زوجها في باريس، وهو أستاذ جامعي يعلم الأدب في السوربون.

تخبرني سلوى أن جيلار تتحجب في الكويت وتخلع الحجاب في بيروت، أمّا نورا فلم تتحجب قط، وهي بحكم عملها في شركة مواد تجميل عالمية، تحرص أن يكون مظهرها أنيقاً ولائقاً، وهي حسب سلوى النسخة السافرة لشهد، فلا فرق بينهما غير الثياب، فكلتاهما متسلطة، ومغرورة، وتظن أنها وحدها تفهم أحسن من الجميع.

وهذا الاختلاف بين بنات آل منصور لا يزعج كثيراً أم وهب، فحين يفتح موضوع بناتها تحيلنا إلى المثل القديم الذي يقول: «البطن بستان، بجيب أشكال وألوان»، وبالنسبة لها كلهن محترمات، لكنها تتمنى لو يلتزمن كلهن بالحجاب الشرعي، خاصة جيلار التي بالنسبة لها «طائشة»، لأنها لا تكتفي بخلع الحجاب، بل حين تزور بيروت صيفاً، تنزل إلى البحر مع صديقاتها، وتتكشف بارتدائها «المايوه»! وتختم أم وهب حديثها بعينين دامعتين رافعة يديها إلى السماء: «رحمتك يا رب، اهديها، دخيلك اهديها».

فتغمزني سلوى وتهمس لي بلؤم:

«كل بيت منصور عندن خَشّة، لبسوا الحجاب أو ما لبسوه».

وأم وهب التي خفّ سمعها، لا تصلها تعليقات سلوى، ولهذا تظل هادئة.

وعادة بعد جلسات الغداء التي تجمعنا جميعاً يقوم الجميع لتأدية الصلاة جماعة خلف عبد الله زوج شهد الذي يؤم الصلاة، وسلوى التي تكون أحياناً بالعادة الشهرية تدّعي أنها على وضوء دائماً، فترتدي ثوب الصلاة وتقف خلفهم وتؤدي الحركات اللازمة للصلاة، وهي تفعل ذلك لأنها تنحرج من أن يعرف الجميع أنها بعادتها الشهرية، وقد لاحظتُ أن أغلب بنات آل منصور من الأقارب أيضاً يشعرن بالحرج نفسه، إلّا شمائل التي تجد دوماً عذراً في وضع كهذا فتحمل أولادها وتغادر، مدّعية أنها تفضل أن تصلّي في بيتها. أما شهد التي لا يجرؤ أحد أن يأمرها بالصلاة أو بغيرها، فهي في هذا الموقف لا تجد أي حرج بالاعتذار قائلة: «صلّوا إنتو، أنا عندي عذري الشرعي». وسلوى التي تمقتها حتى النخاع تهمس معلقة: «شو وقحة» لكن لا أحد يسمعها، مع أن أغلب بنات العائلة يؤيدنها في صمت.

سلوى أسرّت لي ذات مرة: «مخمنة بعدها بتجيبها؟ كذابة ومدعية، بتكون قاطعتها من كذا سنة».

عشت بين آل منصور لمدة سنتين، قبل أن أعود إلى نيويورك، وألتحق بعملي من جديد كصحافية في الجريدة نفسها التي كنتُ أعمل فيها سابقاً.

لم أشعر بالاستقرار في بيروت، كما أن علاقتي بأبّاد اهتزت كثيراً، بسبب الازدواجية الجديدة في شخصيته، وغير ذلك كان الملل قد أعياني وأنا أقضي أغلب وقتي في البيت أو مع نساء العائلة، والاستماع إلى الأسطوانة نفسها من تلك الأحاديث التي لا تتغيّر حول الملبس والمأكل والمشرب وكأنها الثالوث المحوري للحياة.

حتى حين بحثتُ عن جذور أبي في قريته الجبلية المسيحية، لم أجد ما توقعته، فبيت جدي قصفته مدافع لبنانية أيام الحرب وظلّ طللاً شاهداً على الحرب، أمّا أبناء عمومتي فقد جرّتهم الغربة إلى حيث الأمان ولقمة العيش، بعضهم يعيش في لندن، وبعضهم في كندا، وبعضهم في باريس، ولم أحظ من بين عائلته الكبيرة سوى بابنة عمٍّ له، اسمها «روزين» أعيتها الشيخوخة ومرض «الباركنسون»، ولقد اجتهدت لتجمع لي أرقام هواتف أبناء عمومتي، وأخرجت لي أكياساً من الصور، فردتها أمامي لتعرفني بأفراد العائلة، وكلما أعجبتني صورة أحدهم وضعتها في حضني لآخذها معي.

لأول مرة اكتشفت أن عائلة والدي كبيرة جداً، لكنها مثل الزرع الذي قضى عليه الجفاف.

تتأسف العمة «روزين» كل الوقت، لكنها تتأسف بألم أكبر حين تضع بين يدي صورة شاب جميل بقامة شامخة وملامح جدّ جذابة:

ــ هَيْدا كمال ابن عمك «رزق الله»، راح شاب المعتَّر بالمرض!

تقول «المرض» كناية عن السرطان، الذي يتحاشى الجميع في الغالب لفظ اسمه.

ثم تُصِرُّ أن تتصل بأرملته، التي في ظرف ربع ساعة تكون قد وصلت لتتعرّف إليّ.

لا حميميّة لأحد في مجتمعات القرى، يَمُدُّ الواحد يده، ويفتح باب جيرانه ويدخل، يشرب القهوة، ويتناول الغداء إن شاء، ويغادر.

وهكذا فعلت «أوليفيا» أرملة ابن عمي، بَدَا أنها تعرف بيت العمة «روزين» جيداً، إذ دخلت المطبخ، وعادت بعد لحظات تحمل صينية القهوة، ثم تساءلت: «وين ريكا؟».

وبعد تنهيدة عميقة أجابت العجوز:

«حردانة!».

وريكا هي الخادمة، ويبدو أن قصص زعلها أصبحت مألوفة لدى الجميع ، إذ تعلق «أوليفيا» بسرعة:

ــ «عاملة مسلسل مكسيكي إنتِ ويّاها، هيك رح تظلي زعلانة معها؟

ولكن العمة «روزين» لا تأخذ التعليق على أنه مزحة، بل تسهب في شرح المشكلة القائمة بينها وبين «ريكا»، وتنسى الصور التي بين يديها، وتنساني أنا الأخرى.

«زعلت مِنّي السّت لأني بالغلط وقعت تمثال بوذا تبعها، ها يّاها صار لها يومين حردانة لأني كسرتلها ربها مثل ما بتقول».

تسكب أوليفيا القهوة في الفناجين، وهي تعلّق مازحة؛ فيما الضحكة تخنقها:

ـ «وْلي عليكي يا عمتي روزين، راضيها، وبُكرة بيجيبلها حدا من قبلها تمثال جديد».

لكن العجوز لا تقبل:

ـ «عمرها ما ترضى، أنا فهمتها من أول يوم، هون في الله والمسيح».

تتعب أوليفيا في جعل العمة روزين تستوعب أن البنت حرّة في معتقدها الديني، وعند خروجنا من عندها، تهمس لي أن العمة قد تكون كسرت التمثال قصداً.

كان يوماً خريفياً جميلاً، بألوانه، وسمائه نصف الغائمة، ونسماته الباردة القادمة من الشمال، وأصبح فيما بعد علامة فارقة خلال فترة حياتي في لبنان، ظلت علاقتي جيدة بأوليفيا، والعمة روزين، وقد كنتُ أهرب من ضجيج بيروت إلى الضيعة ليرتاح رأسي، أو ربما، كما تقول أوليفيا:

ـ «لأن هون أنتِ».

زرتُ الزيتونات التي كان والدي يتحدث عنها قبل أن يموت، وقطعة الأرض التي اشتراها بنيّة أن يُعمّر عليها بيته، ويعود قبل أن تخدعه الحياة وتطعمه أحلاماً أخرى غير التي هاجر من أجلها.

ومثل النار في الهشيم سرت في الضيعة شائعة أن ابنة نديم نصر عادت لتقوم بإجراءات الإرث، وهناك من قال أنني سأبيع كل شيء وأعود إلى أميركا، وهناك من ألّف لي قصة رومانسية مفادها أنني تزوجت لبنانياً، وسأعمّر بيتاً وأستقر فيه.

في الضيعة تنتشر الأخبار بسرعة بين الناس فهم يشكلون أسرة كبيرة، وحياتهم الاجتماعية تقتصر على التهاني والتعازي وزيارة المريض، ولكن هذه الأشياء في حدّ ذاتها تعطي الحياة طعماً خاصاً.

ظلّت العمّة روزين سعيدة بي، إلى أن تعرفت على أياد، بدَا الحزن واضحاً على ملامحها حين سألته عن طائفته وأجابها أنه «مسلم سني».

ـ «شو عليه (قالت) كلنا أولاد الله!».

وضمت يديها المرتجفتين ببعضهما، قبل أن تتوجه إليّ بالسؤال:

ـ وكيف تزوجتوا؟ غيَّرتِ دينك شي؟

فرويتُ لها بشكل مطوّل قصّة زواجنا، وأننا ارتبطنا بزواج روحي قبل أن نعطي زواجنا شكلاً رسمياً أمام الناس.

ـ «تزوجنا مدني عمتي، بنيويورك».

وبعد كل شرحي المطوّل، زَمَّتْ شفتيها، وقالت:

ـ «تزوجتوا عَ الموضة يعني؟».

ـ وحين أظنُّ أني أنهيتُ الموضوع، تطرح موضوعاً آخر:

ـ «وبُكرة إذا صار عندك ولاد، شو رح يطلعوا، إسلام أو مسيحية؟».

في الحقيقة لم يخطر ببالي أبداً أن يكون أولادي مسلمين أو

www.mlazna.com-RAYAHEEN

مسيحيين، كنتُ دوماً أحلم وأخطط أن يكون لي أولاد، يشبهونني أنا وأياد كما حين كنّا بنيويورك، أمّا بعد أن عشتُ في بيروت، فقد أصبحت أرى فضاءات الأديان والتيارات السياسية تتصارع إمّا صمتاً وإما علناً. كنتُ أشرح لأوليفيا، أنّ الأخلاق لا علاقة لها لا بدين، ولا بجنس، ولا بشهادات جامعية عالية!.

تستوعب أوليفيا ما أقول، وتتفق معي، لكن أخاها شعْيا، ينسف فكرتي من قاعدتها، مدعياً أن هذا البلد سيظلُّ بلد طوائف، والفرد الذي لا ينتمي إلى طائفة يكون عارياً وأعزل. يتحدث وينصحني أمام أياد أن أنهي إجراءات الإرث، وأعمّر بيتي في الجبل بينهم حتى لا أشعر بالاغتراب عند أي خلل أمني أو سياسي قد يهز البلد.

يتفق الجميع، دون أن يعلنوا ذلك بصوت عالٍ أن الحرب قَدرٌ يتربص ببيروت دائماً، فهي تذهب وتجيء وبيروت كلما احترقت ودمرت تنهض من جديد.

العمّة «روزين» ورفيقاتها من «أخوية السيدة» يروين أحداث الحرب أحياناً بحزن، ويرددن «تنذكر وما تنعاد»، بعضهن ترملنّ خلال الحرب، وبعضهن فقدن أبناء في عمر الزهور، وبعضهن فضّلن تهريب أبنائهن إلى الخارج خوفاً من أن ينخرطوا في الأحزاب السياسية التي استعملت المراهقين والشباب وقوداً للحرب. شعيا المسيحي حتى آخر نقطة في دمه، لا يكف عن المزاح والسباب وشتم رجال السياسة.

وحتى «ريكا» يلحقها بعض هذا المزاح مع أن المسكينة مجرد خادمة صغيرة سمراء لا تفهم حتى سياسة بلدها سيريلانكا:

«شو ريكا، جبت بوذا جديد؟».

ولكن ريكا تنزعج، وتجيب غاضبة:

«نو مستر».

فيشرح لها أيضاً بالنبرة المازحة نفسها:

«إنسي ريكا، شرقية مسيح، غريبة محمد، بوذا هونيك إنديا ريكا».

لكن «ريكا» تتمتم ببعض الكلمات السيريلانكية، وتذهب.

وشعيا يجد ذلك ممتعاً ومسلياً:

«أيْ يْ يْ يْ... عم تسبني بالسريلانكي!». بين أوليفيا وشعيا مسافة نضج كبيرة، فأوليفيا التي تكره الحرب، وتعتبر الدين وسيلة لردع الشرّ في الإنسان ومحاربة الشيطان لا الإنسان، تؤمن بالتعايش بين الطوائف، وترى أن لبنان قد يكون بخير لو أن نظامه علماني، وغريب أنّها بالنسبة للجميع مجرّد أرملة شابة تثير شفقتهم، وكذلك أختاها نينا وربيكا أيضاً تثيران شفقة الجميع لأنهما «عَنَّستا»، فنينا هي البكر وقد تجاوزت الخمسين، أمّا ربيكا ففي أواخر الأربعين، لكن كل منهما تبدو أصغر بعشر سنوات على الأقل من عمرها.

وهما مثل عشرات الصبايا في الضيع اللبنانية اللواتي أضاعت الحرب عليهن فرصة الزواج، فالشباب بين مهاجر ومشغول بالقتال أخَلُّوا بالكفّة الطبيعية للحياة بين الذكور والإناث. و«شعيا» الذي

كان مقاتلاً في صفوف «القوات» أحبَّ مرة واحدة، شابة من الضيعة، لكنه ظلَّ متردّداً تجاهها لأن أهلها جميعهم «قوميون سوريون» حتى تزوجت غيره، كانا من دين واحد وطائفة واحدة، لكن السياسة فرّقتهما.

أخوهم طوني تزوج شابة روسية اسمها «أولغا»، تعرّف إليها أثناء دراسته في موسكو، وأولغا بالنسبة للجميع فتاة مريحة، فهي لا تتدخّل في شؤون أحد، وغير ذلك فهي بلا دين، وبلا طائفة، وبلا مذهب سياسي، والأهم أنها شقراء وجميلة جداً.

للأسف سمعة الروسيات سيئة في لبنان، مثلهن مثل الأوكرانيات، والبلغاريات وغيرهنَّ من البنات المستقدمات من أوروبا الشرقية للعمل في مجالي الاستعراض في المرابع الليلية والدعارة المشروعة.

تنظر العمّة روزين إلى شعيا وتغمزه: «جيب إنتَ كمان وحدة روسية وتزوجها لا بتهش ولا بتنش. لحتّى تعمل عيلة، قبل ما يفوتك الوقت».

عشرات الشبان عادوا من المهجر بزوجات أجنبيات، وتجد العمة روزين متعة وهي تسمي أبناء الضيعة الذين تزوجوا أجنبيات من أميركا، وأوروبا، وآسيا والمغرب العربي، وتستسخف ابن صديقتها «أوديت» لأنه تزوج فلبينية، «كانت راحت بالقلب أوديت لـمّا شافتها.».

يهمُّ العمّة «روزين» أخبار الضيعة أولاً بأول، ولهذا فهي تكلف «ريكا» حين يكون مزاجها جيداً بتقصّي الأخبار من صديقاتها في الضيعة. إذ تتوجه معها إلى الكنيسة صباح الآحاد، لتحضر

القداس، فيما «ريكا» تجمع أخبار بيوت الضيعة من الصديقات، تكون العمة «روزين» خاشعة في الصلاة تكفي ساعة لمعرفة بعض الأسرار من الخادمات رغم حرص المعنيين على إخفائها.

في الضيعة، عكس بيروت، تخرج الخادمات الآسيويات لشراء بعض مستلزمات المطبخ من الدكاكين المنتشرة هنا وهناك، أو لتعبئة غالونات الماء من النبع الطبيعي المتواجد في الساحة، وهناك يلتقين، كما يلتقين في ساحة الكنيسة عند أوقات القداديس.

في بيروت، أخطار خروج الخادمة من البيت لا تعد ولا تحصى، لهذا يحرص البعض على التعامل مع الخادمة وكأنها سجينة.

شهد تضع الخادمة خلفها في السيارة حين تخرج للتسوق، أو لزيارة والدتها، تقودها معها حيث تذهب، وحين لا تحتاج لها، تغلق الباب بالمفتاح عليها وتخرج.

«ريكا» تتحكّم في حياة العمّة روزين بشكل مخيف، فحين تغضب منها تعتكف في غرفتها ولا تردّ عليها، تتركها بدون غداء، أو عشاء، أو بكل بساطة لا تقلب هاوس الاشتراك عند انقطاع الكهرباء، فتتركها في العتمة.

عشتُ حياة ممتعة بين بيروت والضيعة، بين عائلة زوجي وعائلة والدي، لكني كنتُ أتضايق من الأهداف التي غابت من حياتي، وحلقة الفراغ التي أدور فيها شيئاً فشيئاً أصبحتْ تضيق عليَّ حتى ما عاد بإمكاني أن أتنفس.

وقد أحببتُ فوضى بيروت في البداية، لكني مع الوقت أصبحتُ أضيق ذرعاً بها.

تلاحقني الفوضى من الشارع إلى خزانة أياد وغرفة نومنا، وحمامنا، ومطبخنا، وطريقة نومنا أيضاً.

كُنّا ننام في العاشرة، ونستيقظ في السادسة. نعرف متى نعمل، ومتى نمرح، ومتى نصمت! في بيروت، قد يزورنا صديق في العاشرة دون سابق خبر، ويفرض علينا أن نسهر معه، ظانّاً أننا سعداء بحضوره المفاجيء.

يسكب أياد كأسين، ويدخنان، وحكاية تسحب حكاية، والدقائق تتآكل، والوقت يمضي.

أنسحب إلى فراشي، فيما يظل أياد ساهراً لمجاملة صديقه إلى ساعة متأخرة من الليل ومع هذا يستيقظ باكراً، ويطرد النوم من جسده المتعب بركوة قهوة كاملة يفرغها في جوفه وهو يتابع الأخبار على عدة قنوات. أشعر دوماً أن التغيرات التي أصابت أياد بدأت من دمائه التي أصبحت مزيجاً من الكحول والكافيين والنيكوتين ليتأقلم مع مزاج بيروت.

كيف يقوى على مواجهة طلبته؟

لا أعرف!

كيف يفيدهم، ويوجههم، ويستثمر عقولهم الخام؟

أيضاً لا أعرف!

لكنه يجد دوماً سبباً يبرر به فوضاه، على أن الضغوط الاقتصادية والسياسية في هذا البلد هي التي تجعله يعيش مثل الجميع!

يقول دوماً إن الإنسان بحاجة إلى بعض الانحراف في حياته ليحيد عن الضغوط! ثم بعد كل هذا أصبح يخاطبني بصيغة جديدة إذ لم أعد بالنسبة له «مارغريت» بل أصبحتُ «أنتم الأميركان».

وحتى شمائل التي أجد فيها السلوى أكثر من غيرها، تنسى، وتستعمل معي المصطلح نفسه.

شعيا، أوليفيا، العمّة روزين، سِتّات الأخوية..

الغربية، والشرقية، والمتن!

أنا: «الأميركان» بالنسبة للجميع.

في سياق الحديث ترد الكلمة أكثر من مرة، مع اعتذار مهذّب.

كنتُ أفهم عمق وأبعاد ما يقال، فبشكل ما كان واقع السياسة الأميركية في الشرق الأوسط وتجاه العرب هو الذي يجعل الجميع يتحدث عن أميركا بذلك السخط، وكنتُ أفرّق في سياقات الحديث بين أن يوجه لي الكلام كأميركية، وبين أن يوجه لي كلبنانية، «تأمركت» نتيجة السياسة الخاطئة في بلدها.

كنت أفهم كل ذلك، ولكن مع هذا أصبحت الكلمة تزعجني.

□□□

تحت إصرار أوليفيا، والعمّة روزين، وجيرانها دخلتُ دوامة «حصر الإرث» الذي تركه لي والدي، وقد فوجئت بأن قطعة الأرض التي

www.mlazna.com-RAYAHEEN

كان والدي قد اشتراها ليبني عليها بيتاً تقدر بمليون دولار. ومع إضافة الزيتونات وأرض بيت جدّي أصبحتُ مليونيرة!

كانت بيروت تطحن أياد، وتُقلّلُ من قيمته يوماً بعد يوم.

وكانت ترفعني كل يوم مع أنني أدور في متاهة إرث والدي يومياً، وألعن الساعة التي قدمتُ فيها إلى بيروت. كل ورقة تستلزم دفع رشوة لاستخراجها، حتى خلتني سأصرف آخر دولار من المليون على أغلب موظفي الدوائر الرسمية، الجوع في عيون أولئك الموظفين، جوع المريض الذي يظلّ يأكل حتى تصبح الطاولة فارغة!

فلطالما امتعض البعض لأن ورقة الخمسين دولاراً لم تعجبه لقلتها، يجب على المواطن أن يفرغ كل ما في جيوبه ويضعها في جيوبهم، وإن تطلب الأمر أن يخلع بنطلونه ويقدمه لهم، ويغادر عارياً فلا مانع!

أوشكت أنا وأياد أن نفلس قبل أن نرى المليون. وحين رأيناه، رأينا نجوم الظهر معه.

أولاً زارتنا الخالة وردة، وهي قريبة لأم وهب من جانب جدتها، جاءت تطلب مبلغاً صغيراً يقدر بستة آلاف دولار من أجل أن تجري عملية لركبتها، وتتمكن من شراء أدويتها، ووردة سيدة بدينة تشبه كرة الثلج فهي لشدة بياضها وقصرها وضخامتها لا تختلف عن كرة الثلج في شيء، وهي طيلة الوقت تذوب، إذْ تتصبب عرقاً، ولا تكف عن مسح وجهها بيديها، ثم مسح يديها بتنورتها..

رضختُ لرغبة أياد، فأعطيتها الستة آلاف دولار، فوردة ليست

فقط قريبة العائلة، وصديقة أم وهب بل هي سيدة فقيرة شربت من كؤوس العذاب الكثير، فقد تزوجت أول مرة من رجل فلسطيني أخذ ما تملكه من مجوهرات واختفى، وظلت معلّقة، لا متزوجة ولا مطلقة، حتى رفعت قضية طلاق ونالتها بصعوبة، فتزوجت مرة أخرى، لكن الزوج الثاني أيضاً طلّقها حين اتضح أن وردة عاقر.

أخذت الخالة وردة المال، وقبّلتني ثم غادرت وهي تعرج. أنا سارعتُ إلى غسل وجهي من عرق وجهها.

أقارب، وجيران، وأصحاب..

لا يتوقف هاتف أياد عن الرنين، فقد جعلنا خبر المليون دولار نتحوّل إلى ما يشبيه مقرّاً لجمعية خيرية.

من يريد أن يتعالج، ومن يريد أن يدفع أقساط المدرسة لأولاده، ومن يريد أن يبدأ بمشروع، ومن ومن ومن..

وحتى لا أفتح باباً على نفسي لن أستطيع غلقه، اقترحت على أياد أن نسافر إلى لندن لنهرب من الجميع، ونعيد بناء علاقتنا من جديد لكن أياد اختار «ماليزيا».

ولا أدري هل من سوء حظه، أو من سوء حظ علاقتنا وافقت!

قضينا أسبوعين في ماليزيا مثل حلم جميل، لكن ليس لأن أياد معي، بل لأني التقيتُ صديقاً قديماً لي اسمه «نُوا»، كان يغطي أحداث أفغانستان، وجاء إلى ماليزيا لأخذ قسط من الراحة.

فماليزيا جنة من جنان الله على أرضه، بالنسبة لقادم من «مملكة

الغبار» تلك ــ كما يسميها نوا. وغير ذلك، لم يكن ما بيني وبين نوا عادياً، لقد كان شيئاً احتجت أن يحدث فحدث، ففي الوقت الذي كان فيه أياد بحاجة إلى تعويض ما فاته من ساعات النوم، كنتُ أنا أتقاسم ذلك الوقت مع نوا في المسبح، أو في أي مكان آخر نستمتع فيه معاً.

خمسة أيام فقط، فإذا بي أندس في فراشه، وأمارس معه الحب.

كان نوا قد انفصل عن زوجته بسبب مهنته، أما أنا فقد كنت زوجة جائعة، تبحث عن المتعة! فوجدتها مع نوا، وأصبح من الصعب أن أجدها مع أياد مرة أخرى.

لقد جاء نوا ليحسم أمراً كان من المفروض عليَّ أن أحسمه منذ زمن بعيد، ولكنه لم يتضح لي لتوغلي في فوضى بيروت وضجيج عائلته حول قضايا هامشية لا معنى لها. عدنا من ماليزيا، فقررت أن ننفصل، وأعود إلى نيويورك.

في مفهوم أياد، ارتبط قراري حتماً بالمليون الذي أصبح في حوزتي، ولكني تذرعت بأشياء أخرى لطالما تضايقت منها، ولم أخبره أني خنته خيانة كاملة جسداً وتفكيراً، فدماؤه الشرقية لن تتحمل ذلك، وأنا، لم أكن على استعداد لإهدار مزيد من الوقت والتفكير والتدبير معه.

كأية امرأة عربية أخفيتُ خيانتي له، لأنها في الحقيقة لم تكن خيانة بهذا المعنى الضيّق، كانت تعني أن أياد انتهى بالنسبة لي، ولم يكن بمقدوري إصلاحه، كان دوماً كذلك، ولكنه ارتدى أثواباً أخرى تناسبت مع وضع خاص حين كان في أميركا، وحين عاد إلى موطنه رمى كل ما كان يغطيه ويُزينه.

تماماً كما أصبحتُ أنا أرتدي وآكل، وأشرب ما يرضي الآخرين في عائلته «الموقرة»! وأنسى في الغالب أن هناك شخصاً هو «أنا» يجب أن أرضيه أولاً.

وكان انشطاري بين آل منصور، وضيعة والدي يجعلني أتحوّل إلى كائنين يصعب التأقلم بينهما في بيت واحد.

كنتُ بحاجة إلى أن أجمع ذاتي، وأكون أنا من جديد، أمّا الله، فأظن أنه يسمع أصواتنا بكل اللغات إناثاً وذكوراً، لئن صلّينا وقوفاً، أو سجوداً، أو ركوعاً أو حتى نياماً، فالله وحده سيُقدِّرُ ذلك.

□□□

هذا هو موطن أبي إذن، الذي لم أر منه الكثير، مع أني تذوقت منه «لبنة شتورا» التي طالما كان يتحدث عنها، وأكلت فيه السمك على مرفأ «جبيل»، وذقت فيه كرز البقاع، ولمست فيه الفرق بين الناس، لكني أيضاً كنتُ أرى كيف يخطىء الجميع في حق بيروت، ويقال «هيك بَدّا أميركا»!

حتى حين تعرفتُ على «رايتشل» زوجة صديق قديم لأياد لم أجد فيها الأميركية البسيطة، بساطة الشعب الأميركي الذي أعرفه، كانت تنشط من أجل محاربة بعض المقاهي والمطاعم والمنتوجات الأميركية التي يعود ريعها حسب ما تقول إلى إسرائيل..!

قاطعوا سلسلة مقاهي «ستار باكس».

قاطعوا سلسلة مطاعم «ماك دونالد».

قاطعوا مشروب الكوكاكولا!

تحمل رزمة أوراقها، وتوزعها حيثُ تكون لقاءات ثقافية تضم عدداً كبيراً من الحاضرين.

لم أكن أفهم لماذا تفعل ذلك بشكل تطوعي. أو بمعنى أدق، لم أكن مقتنعة أن لا جهة سياسية تدعمها هنا في لبنان أو في بلد آخر، وتمولها مادياً لاستمرار حملتها.

إسرائيل هي «البعبع» الذي يخيف العرب جميعهم من الخليج إلى المحيط، وبالنسبة لي لم تكن أكثر من الإبرة التي يخاف منها الأطفال.

وحين أفتح أحديثي مع «رايتشل» وأسألها لماذا تدخل في هذه المتاهة؟ تجيبني كما يجيب العرب: «يجب أن نوقف اليهود عند حدّهم».

فأشفق عليها، فلا شيء في هذا العالم اليوم لا نأكله، أو نشربه، أو نرتديه إلّا ووضع اليهود أيديهم فيه.

اختلفتُ معها في أشياء كثيرة، فلم تنجح صداقتنا لمجرد أننا أميركيتان.

كنتُ مع من يرفضون الحرب جملة وتفصيلاً، فالأنظمة العربية تصب ملايين الدولارات للأحزاب الفلسطينية المتقاتلة فيما بينها، والتي لم تتفق يوماً على مواجهة إسرائيل بشكل منظم.

لا فرق لديَّ بين رايتشل وبين الأنظمة العربية وتلك المقاهي والمطاعم التي تدّعي أنها تحاربها، وهي حين فشلت في إقناعي،

قاطعتني أنا، ثم قاطعَنا زوجها إذ لم يحتمل مني فكرة أن هذه الحرب الدائرة بين إسرائيل وفلسطين قد تنتهي ذات يوم، كما انتهت حروب كثيرة، ويجتمع طرفاها على طاولة مصالح واحدة ويتصافحون!

حتى شهد لا أفهم لماذا تتوتر بشأن هذا الموضوع، فهي من جهة تستشهد بكمال أخلاق النبي محمد (ص) بحادثة اليهودي الذي كان يؤذيه، وحين اختفى لأيام سأل عنه النبي (ص) وزاره حين عرف أنه مريض، وأحياناً أخرى تستشهد بأحاديث غريبة على أن المسلم إذا قتل يهودياً دخل الجنة! و«عبقرية» شهد لا تتوقف عند هذا الحدّ، فهي أحياناً تعتبر «هتلر» بطلاً لأنه أحرق اليهود، وحين أسألها: هل سيذهب إلى الجنة؟ تجيب بـ لا وبثقة نفس عالية، رافعة حاجبيها إلى فوق ليأخذ الغرور والتعالي مساحة أكبر على ملامحها، فهتلر ليس بمسلم، وكل من ليس بمسلم في النار! أتبعها بأسئلتي، فأسألها مرة أخرى: ولكن هتلر لم يختر والديه، ولا الأرض التي ولد فيها وكبر فيها، ولا المجتمع الذي تواجد فيه..

فتجيب: وظيفة كل إنسان في الحياة البحث عن الله، ألم تسمعي بالذين اعتنقوا الإسلام وتابوا إلى الله من مشاهير هذا العالم؟

يغيب عن شهد أن آلاف الشباب العربي المسلم أصبح يرتد عن الإسلام، معتنقاً المسيحية، أو ذاهباً إلى الإلحاد مباشرة، تعباً من التطرف، والتدين الذي أصبح وسيلة لتدمير الآخر، وليس للتقرب إلى الله.

خلال سنتين تقريباً عشتهما في بيروت لم أنجز شيئاً ذا قيمة، كنتُ

www.mlazna.com-RAYAHEEN

أثرثر كما يثرثر الجميع في أشياء لا تخصني، ولا تهمني.

ولا أدري كيف أقع في شباك تلك الأحاديث دون أن أنتبه، حتى أجد نفسي محتدة وعلى وشك الانفجار.

وحتى حين أهرب عند العمة روزين، أجد مواضيع أخرى مشابهة تثار ولا تنتهي أبداً. غادرت بيروت في خريف ١٩٩٥.

وعدتُ إلى حياتي الهادئة.

كلام قليل وهدوء كثير، كتب، وموسيقى، وأشياء كثيرة أنستنيها بيروت وقرى الجبل في لبنان.

عاد «نوا» أيضاً من أفغانستان، فعشتُ من جديد فورة حب غريبة! ليس به، ولكن بالمهنة!

ثم انتبهتُ أنني في خلال فوضى بيروت نسيت حزني على والديَّ وأخي.

وقد تساءلت أكثر من مرة، كيف خدعتني بيروت وأخذت مني ذلك الحزن العارم، الذي ألفته وأصبح دليلي القاطع على وفائي لعائلتي؟

حتى إني زرت المقبرة، ومررت قرب بيتنا القديم، وأقمتُ في «سياتل» لعدة أيام، ثم عدت إلى نيويورك مفرغة تماماً من كل علامات الحزن.

كنتُ فقط أشتاقهم!

وأحبهم..

وأفكر كيف أترجم ذلك الحب إلى شيء جميل سيحبونه هم أيضاً.

«نوا» قال لي: «هذه تأثيرات بيروت!». ولم أصدقه طبعاً!

لكنه أضاف:

«مرارة الدواء لا تعني أنه لا يشفي».

ثم بعد أيام، وأيام..

وأنا مع «نوا» أو مع الأصدقاء، تطفو بيروت في أحاديثي.

أحكي عن شهد التي كانت توتر أعصابي فأضحك وأحكي عن العمة روزين، فأضحك، وأتذكر الجميع وحميميتهم المفرطة، وأشعر بالشوق إلى أوليفيا، وإلى سهراتنا الصيفية على شرفة بيتهم في الضيعة حيث يمتد أمامها منحدر كبير من أشجار الصنوبر الذي تتخلله البيوت الحجرية الجميلة بقرميدها الأحمر، ومنظر البحر من خليج جونية إلى مرفأ بيروت..

ووجه أوليفيا ليلاً وهو يأخذ إشراقة مختلفة، يتراءى أمامي حين أكون وحيدة في نيويورك وحكاياتها أسمعها وكأنها تأتي من بعيد، ورائحة سجائرها تنبعث من الذاكرة وكأنها بقربي، والألم والأمل، مزيج عينيها النادر يضيء وحدتي وهي تحكي عن زواجها القصير بكمال، وعن الأيام العصيبة التي عاشاها معاً وهي تحارب معه مرض اللوكيميا، ثم تطفو جملتها السحرية على بحر من الحكايات التي روتها لي: «يحرمنا الله من أشياء كثيرة لكي نتذكره».

ثم تمسك أيقونة العذراء مريم المعلقة في عنقها وتقبلها، وتبقيها في قبضتها وتردد: «شو قضّيت يا مارغريت، شو قضيتْ»، وحين أظنُّ أنها ستبكي، تضيف: «فرعون يا مارغريت حين منحه الله كل شيء، ظنَّ أنه هو الإله، وكل الظالمين في الكون هيك كانوا.. الحمد لله بعدني بإيماني». تصمت قليلاً ثم تضيف: «يا عذراء أشفقي».

«نوا» يقول إنه أصبح لي جذور في بيروت وأنا لم أدرك ذلك إلّا حينما غادرتها درنة نامت طوال الوقت هناك ثم عادت إلى الحياة حين لاءمت الظروف.

ينتابني الحنين إلى بيروت أكثر حين يعود «نُوا» من إحدى سفراته.

يعود محملاً بالحكايات الشرقية التي لا مثيل لها في العالم كله، وتحضر بيروت، شئت أم أبيت، تحضر بكثافة!

أصبحتْ سرّاً يسكن صدري، وأشعر به كما لو أنه كائن حيّ، يتنفس ويعيش في داخلي، ويمرح بين القلب والذاكرة، يذهب ويجيء، يصعد وينزل ويحدث أصواتاً تناديني لأعود.

بيروت المملّة حين كنت أدور في عوالم آل منصور وأحاديث شهد، وغباء أم وهب، وازدواجية أياد تصبح مسرحاً ساحراً، تدور عليه أحداث ملهاة تفوق خيال المرء في روعته ورونقه وتنوعه.

ومثلما قالت لي أوليفيا ذات يوم، وأنا أشرب من نبع الضيعة، عن أنني تناولت الطعم الذي سيعيدني إلى لبنان، حملت حقيبتي وسافرت بعد سنة، ذهبت للقاء «نوا» في عيد العشاق هناك، إذ كانت أفغانستان تعيش تحت رحى حرب جديدة وعنيفة بعد أن

دُمّرت تماماً وسيطر عليها طالبان، وكان «نوا» لا يجد وقتاً كافياً للعودة إلى أميركا، فبيروت قريبة ومختلفة عن كل الدول التي تحيط بأفغانستان، فهي المتنفس القريب للخليجيين، ورجال الأعمال، والجواسيس، ومبيضي الأموال والمنفيين، والهاربين من أنظمة دولهم، والمقموعين من مجتمعاتهم، وآخرين كلهم يأتون هنا ليعيشوا في بلد عربي لا يقمعون فيه، بعضهم يهرب من القانون، وبعضهم يهرب من الظلم، وفي كلتا الحالتين بيروت كريمة، ومضيافة وتعرف متى تغض البصر.

وصلت بيروت قبل «نوا» بيومين. استأجرت شقة مفروشة في شارع المقدسي، وانتظرته لكنني لم أهدأ، أردت أن أعرف المتغيرات! كما اللبنانيون الذين يأتون من المهجر، قمتُ بدورة على من أعتبرهم أصدقاء أو أهلاً:

أولاً زرت العمة روزين. وجدت باب بيتها مفتوحاً كالعادة، دخلت فوجدتها ممدّدة على الصوفا و«الريموت كونترول» في يدها، وهي غافية، ومسلسل قديم بالأبيض والأسود على شاشة تلفزيون لبنان يتصارع أشخاصه بأصوات عالية. شخير العمّة روزين منتظم ومتناغم مع أصوات المسلسل)! يا للعمة روزين كم كانت تشبه تلفزيون لبنان!

زرت أوليفيا، واتصلت بأياد الذي أقنعته أن انفصالنا لا يستلزم أن نكون أعداء.

لا تغيرات، قال شعيا:

«تذهبين وتأتين ولا شيء يتغير في لبنان».

لا يزال شعبا بدون عمل، يعيش متطفلاً على أصدقائه، وهو مرتاح على وضعه كما تقول أوليفيا.

أمّا أوليفيا فقد وجدت عملاً أفضل، لكنها لم تجد رجلاً مثل كمال. تقول إن اللبنانيين يخافون من الأرامل!

فيما يخالفها «نوا» الرأي تماماً، لأن اللبنانيين في نظره أفضل من كل العرب من الخليج إلى المحيط. فرجال العرب حين يفكرون في الزواج، يبحثون عن شابات جميلات وصغيرات في السن أمّا حين يفكرون في العلاقات العابرة، فلا بأس بعاهرة أو مطلّقة أو أرملة!

تنظر أوليفيا إلى «نوا» بإعجاب يتخلله الحزن، وكأنها تتمنى لو أنها تجد رجلاً يشبهه تماماً ولأنني أعرفها جيداً ندمت على اصطحابه معي حين جاء إلى بيروت، لقد زدت لها حزناً إضافياً.

تقول أوليفيا: «لو أنني في أوروبا أو في أميركا لوجدت رفيقاً».

وهذا يعني أن فرصتها لإيجاد رفيق بين بيروت بين بيروت وضيعتها تكاد تكون معدومة، فهي مسيحية مارونية وقد تجاوزت الأربعين وهي فوق ذلك أرملة.

إن أي رجل أربعيني بمواصفات أوليفيا سيكون صيداً ثميناً لشابة لا يهمها عمره، بقدر ما يهمها أنه حقق ذاته، وأصبح لديه بيت وسيارة وعمل مستقرّ.

«لقد غيّرت الأزمة الاقتصادية مفاهيم الحياة كلها»، تقول أوليفيا، ثم تعتذر، وتقوم لبعض الوقت، وحين تعود ألاحظ أنها بكت.

لماذا بكت؟

كنتُ وأنا أخبرها عن «نوا» وعن حياتي الجديدة أشق صدرها بمخالب مؤلمة دون أن أنتبه، انتبهتُ لذلك في زيارتي الثانية لها وأنا مع «نوا».

كان عيد العشاق، وكان ذلك البلد الصغير يحتفل بالحب، على أنقاض أحزانه بطريقته، محلات الزهور عاجّة بالعشاق والمغرومين، محلات الهدايا الحمراء غاصة بالمراهقين، وفيما الفتاوى تلاحق المشاعر الإنسانية في موعد يتيم للحب مثل هذا الموعد النادر يحتفل الناس غير مبالين بوعيد رجال الدين على اختلاف طوائفهم. وأنا مع «نوا» وهو يطوقني في شارع الحمرا، النابض عشقاً، تذكرت خُبث شهد في سنة زواجي الأولى، حيث أقامت عشاء فخماً ودعت إليه كل أفراد العائلة، لتضمن عدم خروجنا للاحتفال مثل الجميع.

شهد الصارمة، بمنديلها الذي لا يفارقها حتى في حضور النساء ظنّاً منها أن ذلك سلوك يقربها من الله، تجد دوماً سلوكات أكثر غرابة لتوهم نفسها أنها ترتقي يوماً بعد يوم على سلم الصالحين والمقربين إلى الله، وهي في ذلك اليوم ظنّت أنها منعتنا جميعاً من المضي في طريق القديس فالنتين المشبوه والخاطىء. فيما في الحقيقة لا أحد كان يهتم بالقديس فالنتين، وفي الغالب لا أحد يعرف عنه شيئاً غير اسمه، فكل المحتفلين، كلٌّ يحتفل بحبيبه لا غير.

«آه! (تقول شهد) الناس كلها صارت جهلانه، هلّق اليوم تذكروا يحبوا بعض؟» لا أحد يرد، فالجميع يفضل عدم الدخول في

www.mlazna.com-RAYAHEEN

نقاشات مع شهد، إذ إن قناعتها بأنها على حق وأن الآخرين على خطأ تحوّل المناقشة دوماً إلى جدل بيزنطي، ولهذا جميعنا نفضل الهدنة، فيما هي تظن أنها أحرزت انتصاراً.

ربما ما كان عليَّ أن أختار بيروت للقاء «نوا» إذ جعلتني أذكر أشياء كثيرة ما كان يجب أن أتذكرها، أيضاً جعلتني أتصرف بجنون أحياناً كما حين اتصلت بأياد.

وما شأني به بعد انفصالنا؟

أكنتُ فعلاً أطمئن إلى أنّي دمّرته كما قال لي؟

أم أني أيضاً كما قال أتصرف وفق السياسة الخارجية لأميركا أرتبط وأُطلّق وأراقب وأتصرف وفق أطماع خفية؟

لم أستسغ إجابته وتحليلاته، ولم أستسغ تمريرته الغبية لإفهامي أنه أصبح متزوجاً ولا يليق بي الاتصال به. شعرت أن ما تبقى من أياد الذي عرفته في نيويورك قد انتهى تماماً، وأن من يتحدث معي على الهاتف رجل آخر، لم يجدُرْ بي أن أتصل به.

أخبرت «نوا» بعد تردد بما فعلت، ولكنه أجاب بثقته المعهودة في نفسه:

.Forget it —

لم يسمح لي حتى أن أعتذر، وضع أصابعه على شفتي، وقتل بقية الكلام السخيف بقبلته التي لها ألف معنى جميل.

كانت ملامحه الأفريقية تحت أضواء شارع الحمرا المبلل بمطر

خفيف تشبه بعض الشيء طيف شوقي الشّاب الذي أحببته في القاهرة حين كنتُ في السابعة عشرة من عمري. كان والده ديبلوماسياً، تعرّف إليه والدي في إحدى سفرات عمله إلى أفريقيا، وأصبحا صديقين، كان جميلاً ومثيراً، وكنتُ شبقة في ذلك العمر الباكر، وفي إحدى الحفلات التي دعانا إليه والده، تسللنا إلى الطابق العلوي حيث مرسمه، وتعريت أمامه، ثم تمدّدت على السجاد وأنا أنظر إليه بحرقة المرأة التي أعمتها الرغبة، ولكنه بدل أن يتعرى ويأخذني... جلس بقربي وراح يمرر يده على جسدي، يتحسس نهدي وبطني وفخذي، بيدٍ باردة لا مشاعر فيها، ولا حرارة، بعينين حياديتين فارغتين تماماً من الشهوة، وكنتُ أسأله مُحاوِلةً تهييجه: «ألا تريد أن تضاجعني؟»، فهزَّ رأسه أن لا، ثم ابتسم وقال: «أنا لوطي يا مارغريت، أجساد النساء لا تعني لي شيئاً»!

يا للذكورة المهدورة!!

كل تلك السُّمرة، وذاك الجسد الصارخ شهوة، وتلك اليدين الفرعونيتين، وتلك العينين بسوادهما القاهر..

كلها لا شيء!

«يا حرام! هيدا لَـمَّا خلّفوه أهله، كانوا مبسوطين أنهم جابوا صبي!!» على رأي أوليفيا.

لملمت جسدي الذي تحوّل إلى لوح من الخجل، ولملمت ثيابي، وغادرت.

وأذكر أن الشيخ حمّاد الذي لا يصافح النساء، يصافح شوقي ويثني على تربيته أمام والده.

شوقي بعيداً عن الأعين، يهمس لي «لو علم الشيخ حمّاد أني لوطي لقطع يده التي صافحتني».

ثم يضحك ساخراً من والده، ومن كوكبة الأصدقاء الذين كوّنهم من أجل حماية مصالحه؛ بعض الشيوخ، والقضاة، ورجال الجيش الذين كانوا دوماً في الواجهة!

يضحك..

وبياض أسنانه مثل أسنان «نوا».

وشفتاه مثل شفتيْ «نوا».

وصوته الغائب في ذاكرتي، تطغى عليه أنفاس «نوا».

ــ أشتاقك، أريد أن أضمك إلى صدري حتى تنصهري وتتوغلي في كامل جسدي ونستحيل جسداً واحداً! يضغط عليّ بذراعيه، ويطرد الذكريات السيئة من ساحة وعيي.

تناولنا العشاء في مطعم رومانسي صغير يقدم أكلاً فرنسياً، في زاوية من زوايا شارع الحمرا، ثم ترجلنا شبه ثملين إلى شقتنا في شارع المقدسي، نمتُ على كتفه، نوماً لذيذاً لم أتذوقه منذ قتلت عائلتي في شرم الشيخ.

كنتُ عاشقة، وكان نبض قلبه مثل أغاني الطفولة أسمعها فأنام.

غياب «نوا» المستمر، وزياراته المقتضبة، جعلت علاقتي به تتأجج مع كل لقاء.

كان يعود حزيناً، محطماً، وكئيباً، تعلوه الغبائر. نلتقي فتعود إليه الحياة.

قضيتُ معه يومين لا غير، ليأتيه أمر بالسفر إلى «كوسوفو» وقد كان سعيداً لأن «كوسوفو» كانت أكثر هدوءاً مقارنة مع كابول.

ــ لا أحد يفهم الحروب إلّا مَن تفوّق في مادة الجغرافيا: (يقول لي).

يفرد خريطته، ويشرح لي تقنية الحروب المتكررة في العالم.

هناك دوماً من يستفيد من الحرب أضعاف الأضعاف عمّن يستفيد من السلم.

هناك دوماً أموال، وأسلحة، وجيران، يتواطأون لتندلع الحروب.

هناك دوماً مصلحة اقتصادية خلف كل حرب.

ثم أخيراً يقول:

«الحرب ترتدي أقنعة» يا مارغريت.

وأنا وهو نعيش الحب بين حرب وحرب.

كان يعدني في كل مرة أن سينهي ارتباطه بهذا العمل الخطير، وأننا سنستقر في ميامي، ونعيش حياة رغيدة، وهادئة.

لكن أحلامنا المشتركة كانت تتعثر دوماً بألغاز الحروب التي تتجاذبه.

كان أشبه بصبي يدخل عملية قتال عبر جهازه «البلاي ستايشن» فيذهب فيها حتى النهاية.

من كوسوفو، إلى أفغانستان، ثم إلى دارفور..

وأنا التي كنتُ أحلم وحدي بحياة الهدوء، والاستقرار، والعائلة!

كان ككل الذكور في هذا الكون، تحركهم حاسة غريبة نحو «لعبة القتال» فإما يخوضونه وإمّا يتفرجون عليه.

ــ هل خلقنا الله فقط لنجزَّ أعناق بعضنا بعضاً من أجله؟

أسأل «نوا» فلا يجيب، ونحنُ في شقة شارع المقدسي الملونة، وهو منغمس في كتابة تحليله على جهازه، فأُردف:

ــ المسلمون غريبون بآياتهم الجهادية يا «نوا»، ماذا لو خلقنا في مكان آخر غير أميركا، ماذا لو خلقنا في أفغانستان؟ أو دارفور؟ أو.. فيقاطعني مازحاً:

ــ كنتِ ستكونين مغطاة بالبوركا، هذا الرداء الأزرق الذي فرضته طالبان، وتعيشين وكأنك في حفلة «هلاوين» لا تنتهي!

أغضبني مزاحه عكس ما كان يتوقع وعكس ما توقعت فانفجرتُ في وجهه:

ــ لماذا لا ترتدي أنت البوركا، وتعيش في حفلة «هلاوين» لا

تنتهي، لماذا تُفكر دوماً انطلاقاً من ذكوريتك، لماذا لا تفكر انطلاقاً من إنسانيتك وأنَّ هذا الإنسان الذي يُغَطي من فوق إلى تحت لإخفائه، وتحويله إلى شبح إنسان مثلك له الحق للتعرض للشمس والهواء، له الحق مثلك تماماً ليأخذ نصيبه كاملاً في الحياة.

كنتُ أصرخ، مصابة بنوبة غضب فجائية، و«نوا» يقترب مني هامساً:

«نو بيبي..»

ثم أخذني بحضنه، واحتواني برفق، وراح يضغط عليَّ شيئاً فشيئاً، حتى هدأت ولكني انفجرت باكية.

الشرق يعطينا شعوراً بالخوف على أننا غير محصّنين، غير محميين، مخترقون، عُزَّل، وكأننا نعيش في خلاء تجتمع فيه كائنات مسعورة مستعدة فقط لجزّ رؤوسنا لأسباب تافهة، كأن يبدو شعر المرأة مثلاً، أو حين يختلي رجل بامرأة، أو حين يسمع الموسيقى أو.. أو..

في مدن أخرى نحبُّ الله، ونستمتع بطبيعته، ونعشق كونه، وفي مدن الشرق هذه نخاف من الله، ونرتعب منه، فنتصرف وكأننا لصوص نسرق مُتع الحياة متى سنحت لنا الفرصة، ونبتلعها وكأننا نبتلع الممنوعات.

ــ الشرق ليس سيئاً لهذا الحدّ. يقول «نوا»، ولكنه لا يقنعني.

يسرد محاسن الشرق كلها، ولكنها لا تعنيني ما دام الشرق تحت سيطرة مجموعة من الأئمة المشبوهين، وما دام أغلب هؤلاء الأئمة

www.mlazna.com-RAYAHEEN

مُسَيَّرين من طرف منظمات إرهابية، لتفتيت الشرق من الداخل كما يقول «نوا»!

شرق بعقول مُعطّلة!!

هذا هو شرق الآن، وهذا هو الشرق الذي دمّر عائلتي، وهذا هو الشرق الذي يقودني إلى الجنون، ويثير الشكوك في داخلي نحو حقيقتي كإنسان. وهل أنا إنسان وُجِدْتُ لحكمة إلهية أجهلها؟ أم أني نرد قُذِف بي في متاهة جزء منها يوصل للجنة، وجزء منها يوصل للنار؟

هذا هو شرق شهد المتعالية المتعجرفة، والتي تظن أنها تقربت إلى الله بما يكفي لتأخذ مكانها المحفوظ في الجنة، وشرق سلوى المطحونة التي شكلاً هي من رواد الجنة، ومضموناً هي من رواد النار.

شرق الحاج عبد الله، وشرق أياد، وشرق وهب، وشرق شعيا، وشرق أوليفيا، وشرق العمة روزين التي تخدمها ريكا..

أووووف!

يؤلمني رأسي حين أفكر في تفاصيل هذا الشرق.

غادر «نوا» إلى كوسوفو، ليغيب أسبوعاً كاملاً ثم يعود.

وقد ظننت أنَّ ذلك الأسبوع سيكون مُمِلاً لكن الوقت في بيروت قصير جداً.

إذ لا أكاد أستيقظ صباحاً في العاشرة، حتى تعلن المآذن بعد قليل أن صلاة الظهر قد حانت.

تنبعث راحة «المناقيش» والزعتر، من الفرن المقابل لشقتي، والفران الملعون يسترق النظر إليَّ وأنا أحتسي فنجان النسكافيه، ثم بعد لحظات يدق الباب.

أفتح، لأجد صبيّه السُّوري قد أحضر لي منقوشتين، واحدة بالزعتر، وأخرى بالجبن. يغازلني الفران بالجبن والزعتر. أخرج إلى الشرفة، وأومىء له أن شكراً.

ــ أهلاً بالجارة!

يقول.

ويبدو سعيداً، كما كل اللبنانيين، يبتسمون، ويمزحون، ويسخرون من أحزانهم، ومن التّقلبات الغريبة لحياتهم اليومية، ومن الضائقة الاقتصادية التي تطوق عنق كل فرد منهم، حتى أولئك الذين يقطنون قصوراً تفصلهم عن عالم الكادحين.

هناك حميمية غريبة في بيروت.

بعض الناس فيها تصادقهم من اللحظة الأولى، تصادق الشوارع والأماكن، والمقاهي.

تقع في الحب بالتدريج في تكاوينها، ثم تجد نفسك غاطساً في حبها.

بالتأكيد، لا علاقة لـ «نوا» بالموضوع، فكوننا التقينا معاً في بيروت

في عيد العشاق، لا يعني أني أتوهّم حبها، فقد عاد «نوا» بوجه مشوّه من «كوسوفو»، وكنتُ أراه للمرة الأولى يحمل ندباً في وجهه وعينه اليسرى نصف مغلقة. ظلّ غاضباً لأيام من الطوائف، والإثنيات، والأديان. كان يقول إنه لا يريد أن يسمع مآذن المساجد وأجراس الكنائس لأنها تذكره بالحروب.

كان يصف المجازر التي يقوم بها الصرب ضد المسلمين وعيناه تائهتان في الخواء. صور كوسوفو لاحقته إلى البيت.

كان قد عثر على طفلة مسلمة مختبئة وسط الدمار، وهو لا يذكر في تلك اللحظة كيف طوّقه مسلحون استحلوا أن يعبثوا معه بطريقتهم، أخذوا الطفلة منه، وراحوا يبرحونه ضرباً، ثم مدّ أحدهم يده إلى عنقه واقتطع الصليب الذهبي الذي يعلقه ثم بصق عليه قائلاً:

ــ أنتَ لا تستحق أن تكون مسيحياً، أتدافع عن قذارة مسلمة مثل هذه؟

كان غاضباً من نفسه، ومن الكون كله، لأنه لم يستطع أن يخلصها من أيدهم، صوّب أحدهم مسدسه إلى رأسها الصغير وأطلق النار عليه.

ــ كنتُ أنظر إليها وأنا أتلوى من ألَمٍ فاق ألم الضربات التي تلقيتها. كانت ترتجف وهي تستنجد بي بعينيها النقيتين، ثم رأيت الرصاصة تخترق رأسها الشفاف، وإذا بها تسقط جثة هامدة.

ــ أحد المسلحين أخذ صليبي من يد الثاني، ورماه في

وجهي قائلاً: «ضع صليبك في مؤخرتك أيها الأميركي الحقير»، ثم مضوا!

وظلّ يردد: لم أستطع أن أنقذها.

ويبكي. ويبكي، ويبكي... من كان يستعطف بكل ذلك البكاء الغزير؟

تلك الذاكرة الجامدة التي ترفض أن تمنح الإنسان نعمة النسيان خبرتها أنا أيضاً قبل سنوات عند انفجار شرم الشيخ، ولهذا أفهمه.

حين استعاد بعضاً من عافيته، كنّا ننزل مشياً من شارع المقدسي إلى كورنيش المنارة، ثم نمشي الكورنيش كله حتى نبلغ الروشة، نراقب الغروب، ونتناول عرانيس الذرة المشوية، ونعود «هالكين» إلى الشقة.

كان ينظر إلى الناس الذين يعجُّ بهم الكورنيش، ويقول لي:

ــ يجب ألّا أن يغشك هذا التعايش، إنه دوماً الهدوء الذي يسبق العاصفة.

لا يطلق العنان لروحه لترتاح، يسجنها في قفص خوفه، وحتى حين يطوّقني ونمشي على الكورنيش، أشعر أنه يمشي على غير طريقي، وكأنه يخترق منطقة مزروعة بالألغام.

عالمه مطوّق بالأسلاك الشائكة، والمكهربة، وصوت الرصاص، وصراخات المستنجدين تملأ رأسه دوماً.

وكثيراً ما أشعر بقلّة وجودي معه، إذْ يُشعرني دوماً أني عديمة الجدوى، لأنني لا أستطيع أن أخرجه من الحرب التي تدور في رأسه.

يقول إن الحرب في رأسه لن تتوقف حتى يتوقف الناس عن القتال.

وكلما التقينا في بيروت، أو في نيويورك أو في عاصمة أخرى من العالم، يحزم حقائبه دوماً، ويطير حيث هناك حروب.

ــ هذه المرة سنذهب حيث المسيحيون يذبحون المسلمين!

يقول مازحاً، ثم في مرة أخرى يقول:

ــ هذه المرة سنذهب حيث المسلمون يذبحون المسيحيين!

ثم كثيراً ما يردد ساخراً من سذاجة الإنسان:

ــ لا يوجد مكان يُذبح فيه الملحدون مثلاً، أو يُذبح فيه المجرمون، أو يُذبح فيه الشواذ!.. (ثم يستطرد): أوه.. الشواذ لطفاء جداً، إنهم لا يؤذون حتى نملة! (يضحك ثم يواصل):

ــ لكنني هذه المرة سأذهب حيث اليهود يذبحون المسلمين والمسيحيين معاً!

في تلك المرة ذهب إلى غزّة!

كان فيروس الاكتئاب قد تغلغل في أعصاب «نوا» بحلول العام ٢٠٠٤، بسبب تغطيته لأحداث «سقوط بغداد» فيما أنا غادرت تماماً عالم الصحافة، ودخلتُ عالم المجوهرات والألماس. كنتُ

بحاجة إلى الخروج من مسرح الجريمة التي لا تنتهي، والتي تضيء عليه الصحافة يومياً، ويجعلني «نوا» أعيشه رغماً عنّي. فأكتئب معه، وتهزني مشاعر الخوف المختلفة وأصاب بالأرق، والكوابيس، وأتعب من الدنيا، ومن الحياة، وأدور حول نفسي كالمجنونة، راغبة في تغيير الكون، والكون لا يتغير، وأصرخ في وجه الموت أن يبتعد فلا يبتعد، وأكتب بكل ما أوتيت من قوة لأبعد قوافل «الشبان المخدوعين» عن القتال فلا أُقرأ، ولا أبدو مُقنعة ممن يقرأون، فالقتال لا يشبه الحبر الذي يسيل على الورق، ولا يشبه اللغة المسالمة.

الرغبة في القتال لها ضجيج يفوق فعل الكتابة الذي ينطلق من كاتم صمت، ولا يُسيل الدماء.

كتبت حتّى مللت.

كتبتُ بالأحرى حتى بَرَدَتْ محرّكات رأسي.

مللت حتى من «نوا»، ومن الحب الذي تحوّل ما بيننا إلى بقايا تنبعث منها الأدخنة.

كانت الحروب تأخذه، وكانت الحياة تأخذني في القطب المعاكس له تماماً.

حتى حين أزور بيروت لألتقيه، أحمل تصميماتي ومجوهراتي معي، وأعقد الصفقات المربحة، وأروّج لنفسي ولما أبدعه، فيما يحمل معه من بغداد، أوحالاً ونيراناً، وجراحاً تنزف، وصراخات لا تبرح رأسه.

يقول إنَّ المطاعم الفخمة التي أرتادها تقصّر من عمره.

www.mlazna.com-RAYAHEEN

يتقزّز من الكافيار، والسلمون، والشامبانيا ومن اللبنانيات الثريات اللواتي تلمع وجوههن من كثرة الشدّ والحشو بمادة البوتوكس، في لقاءات عملي.

يتقزّز من رائحة السيجار الذي يمصُّه رجال لا يعرفون من الدُّنيا سوى ممارسة المصّ!

يتقزّز من البطر الزائد الذي تتميّز به تلك الطبقة التي تعتبر قرار منع دخول الخادمات الفليبينيات إلى بيروت كارثة وطنية، والحرب في بغداد نوعاً من «البيزنس»!

يتقزّز، ويبرم شفتيه، ويتأفف، وينتقدني كما ينتقد جورج بوش تماماً.

يذكّرني بآل منصور حين كانوا ينتقدون أميركا فينظرون إليَّ بنظرات تحمل الكثير من الريبة والشكّ والحقد الدَّفين!

يسخر من أثوابي وأحذيتي وإكسسواراتي، يتذكر الجياع في العالم جميعهم ويحمّلني مسؤولية المجاعات التي تضربهم، والفقر الذي يعيشون فيه.

ثم يسخر من مهنتي الجديدة، ومن الألماس الذي أشتريه وأبيعه لنساء غبيات، ويختصر حالتي بـ«الميؤوس منها»، وأني دخلت «دائرة الغباء» إلى الأبد.

كانت علاقتي به قد بدأت تفتر، تماماً كما بدأت علاقتي بالأشياء البسيطة تفتر. لم تعد شقة شارع المقدسي تغويني، ولا الفران اللطيف الذي يغازلني، ولا أصباح شارع الحمرا، ولا أماسيه..

كنتُ، حسب تحليل «نوا» أخون علناً كل تاريخي السابق، ونضالي السابق من أجل أن تعيش نساء العالم الثالث حياة أفضل، كَسَر غَضبه ما تبقى من قلبي الذي خانته أغلب النساء وفضلن طعن كل نظرياتي والرمي بها عرض الحائط.

أتشاجر معه لأتفه الأسباب.

تتنقل بين الفنادق لأن لا فندق يرضيه.

تحولنا إلى رُحّل، نبحث عن مكان يعيد إلينا فورة الحب التي عشناها في أول سنوات علاقتنا.

الموفمبيك.. لا!

الميتروبوليتن.. لا!

الحبتور.. لا!

«البرغو» بالأشرفية.. لا بأس (يومىء برأسه)! إنه قصر قديم في شارع عبد الوهاب بقلب الأشرفية، وله روح! يريد «نوا» فندقاً له روح!

ولا يرتاده أثرياء الخليج الذين يبالغون في إظهار ثرائهم، كأن يكتب أحدهم رقمه على ورقة نقدية من فئة المائة دولار، ويمنحها «تيب» لنادلة مسكينة هي في الحقيقة طالبة جامعية تعمل من أجل أن توفر أقساط جامعتها، أو كما حدث لنا مرة إذْ يصل أحدهم في سيارة عملاقة ويشغل كل عمال البوابة لإنزال حقائبه، فيمتعض «نوا» ويردد ساخراً:

ــ لقد أفرغ الرجل خذائنه كلها وأحضرها في حقائب.

يقول ذلك حين ينشغل كل العمّال به، بمن فيهم موظفات «الرّيسبْشنْ»، فلا ينتبه لي أحد بحقيبتي الوحيدة، ولا له لأنه رجل بلا حقائب، ما دام يسافر بحقيبة على الظهر.

يمتعض أكثر، وهو يشفق على كل أولئك الأقزام وهم يتراكضون لخدمة العملاق.

ثم يحمل حقيبتي ويغادر، ألحقه وأنا متذمرة أيضاً من تصرفه المفاجيء، مهرولاً نحو باب الخروج، وهو يردد:

ــ هل يعجبك منظر هؤلاء الطلاب الذين تعطيهم دولتهم دروساً في الذل مع برنامجهم الدراسي!

نستقر أياماً في بيروت، ثم نعاود السفر. كثيراً ما سافرت معه من باب الحب المجنون الذي جعلني أظن أني منقذته. سافرت معه مرة إلى دارفور! عشتُ فيها عشرة أيام كأنها الجحيم.

كان حرُّ تموز/ يوليو خانقاً في دارفور، وأشكال المقاتلين مخيفة أكثر مما توقعته، وكنت مضطرة لتغطية رأسي ووجهي وترك عينيّ فقط تظهران لأتحرك مع «نوا»، الذي كان يريد أن يسأل «كولن باول» عن زيارته، وعن صمت الولايات المتحدة، عمّا يحدث في دارفور حتى اندلعت الحرب في بغداد!

كان يفرد الخريطة ويشرح لي:

هنا دارفور. هنا ليبيا. هنا تشاد. هنا مصر. والحرب هنا (يضع إصبعه على دارفور ويردف): إذن هناك من يستفيد من هذه الحرب

هنا وهنا وهنا! تجار الأسلحة والمخدرات والأعضاء البشرية، والرقيق!

أقاطعه:

ــ مافيا إذن؟

يجيب: كلهم مافيا، بما في ذلك الأنظمة. ستتخلص مصر وليبيا بالدرجة الأولى من الإسلاميين المتطرفين، سيتجندون بشكل عفوي في صفوف هذه «الحكومة الإنقاذية الإسلامية الجديدة». أصبحت الحرب إيديولوجية عرقية، ستحمي هذه الدول ودول أخرى في الجوار مثل تونس والمغرب والجزائر إسلامها المعتدل بالتخلص من عدد من المتطرفين والمزعجين الذين سيموتون هنا في دارفور خلال عملية تصفيتهم للمسيحيين السود، ولا يظنون أنهم يُقاتلون الصليبيين يصنعون حرباً بعيدة يا ماغي، لا يسمعون ضجيجها ولا يرون فيها دماء بشر تسيل، يظنون أنّ ذلك حلّ!

أحياناً أشفق عليه، لأن حبه للعدالة ولعمله سَيُدمّرُه. أومىء له أنني فهمت، فينقل إصبعه إلى مكان آخر في الخريطة:

بغداد هنا.. من يستفيد يا ماغي؟

يظنُّ أني إن فهمت ما يدور في رأسه وما يحدث في العالم حسب وجهة نظره، سيفهم الناس جميعهم لعبة الأنظمة الحاكمة في العالم ومافيا الاقتصاد، وسيهتمون بأمورهم الخاصة ويتوقفون عن القتال.

□□□

في شبه الفندق الكئيب الذي كنا نقيم فيه في دارفور، عرّفني

«نوا» إلى إسماعيل جاد الحق، تاجر سلاح، ومغامر لبناني، دخلنا متعبين بعد ساعات من العمل في جمع معلومات مكثفة عن إحدى المجازر الجديدة، وكنتُ على وشك أن أزيح اللثام عن وجهي، حين عرفت ملامحه، حتى وهو يعتمر قبعة رياضية ويرتدي الجينز، وجاكيت من نوع «يوفو».

كان هو الشيخ عبد الله زوج شهد. الملامح نفسها، اللحية نفسها، الصوت نفسه، الخاتم نفسه في خنصر يده اليمنى، التي مدّها لي هذه المرة ليصافحني مع أنه لا يصافح النساء:

قال «نوا»: ماغي رفيقتي!

ولو أنه قال مارغريت ربما، لخفتُ أن يكون عرفني. فقد دقّق النظر في عينيّ حتى خلته يرى ما برأسي.

ــ إنه زوج شهد، قلت لـ «نوا» حين أصبحنا في غرفته.

زوج شهد. بدون عطور.. بدون عباءة.. وبدون تقواه وورعه.

رجل آخر، يتقاسم قنينة ويسكي صغيرة مع مغامر مثله. «نوا» يقول أن لا مغامر في العالم لا يشرب الويسكي، فقليل من الويسكي يقوّي القلب! رأيت ذلك بنفسي مع الصيادين العرب في بلدان عربية عدة.

صعدت معهم على زوارقهم الصغيرة فجراً، وانطلقنا وسط البحر، وحين قطعنا مسافة جيدة أصبح جسدي يرتجف كله من الخوف. مدَّ لي رئيس الصيادين قنينته الصغيرة التي لا تفارق جيب صدريته، وتجرعت منها عدة جرعات خفيفة، قبل أن أفرغها كلها في جوفي.

بعد لحظات تبدّد الخوف من قلبي.

«الريّس» يبتسم بعينين شحذتهما القسوة، وهو يتأمل بزوغ الشمس ويتحدث بهدوء:

ــ قبل أن يصعد أي صياد مبتدىء إلى زورق الصيد، نجعله يشمل أولاً، حتى يتعوّد على شراسة البحر، فالخوف قد يقتله من أول طلعة!

وقد سألته بفضول:

ــ ولكنكم شعب يحرم عليه معاقرة الخمور:

يجيب وعيناه تتسلقان الموج نصف العالي:

ــ الشيوخ المدللون يقولون ذلك! عليهم أن يحرّموا أكل السمك قبل تعاطي الخمور! تتصاعد ضحكات الشبان الذين معه، فتبدو أسنانهم الصّفراء جرّاء كثرة التدخين والشرب، غير أسنان الرجال المدللين.

يعلّق أحدهم ساخراً:

ــ لكن الشيوخ يحبّون السمك يا ريّس!

ــ وأنت ألا تحبه؟ يسأل الريّس.

يجيب الصياد الشاب ضاحكاً:

ــ أنا لست شيخاً!

تحضرني أصواتهم ورحلاتهم المخيفة في عرض البحر، وأنا أفكر في

www.mlazna.com-RAYAHEEN

الشيخ عبد الله، ووجهه الجديد الذي اكتشفته تحت اسم إسماعيل جاد الحق. تتشابه حياة المغامرين جميعهم، فكلهم يحتاجون لمخدّر ما يقتل جانباً من ضمائرهم، ليدخلوا المغامرة ويمضوا فيها إلى الآخر.

الريّس وشبّانه، الشيخ عبد الله ومجاهدو أفغانستان الذين يدخنون الحشيش، وعطور الإسلاميين المتطرفين المخلوطة بأنواع من المخدرات، والخطاب الديني الذي يحوّل فعل القتل إلى رسالة غفران يحملها القاتل إلى ربه ليدخل بها جنة الخالدين!

لكن الريّس وشبّانه يصارعون البحر من أجل عائلاتهم، وقد أنجزت ذلك التحقيق المطوّل يومها عن نساء الصيادين، ووضعهن المزري، وعن موت أزواجهن وأبنائهن في الغالب في البحر.

سألتهن عن علاقتهن بذلك المارد الأزرق الذي يتحكم في حياتهن وبؤسهن، ولا أظنهن يشبهن شهد في شيء، فسلطانة زوجة حمُّو ترتدي أسمالاً تغطيها من فوق إلى تحت، تخفي شعرها بمنديل رثّ، لأنها لا تجد الوقت لتصفيفه، ولا يتوفر لها المال لصبغه حين يكشّر الشيب ويكشف تقدمها في العمر! قالت لي:

ــ حتى حَمُّو لا يعرف أن شعري أصبح أبيض!

ــ أوه؟ قلت لها مستغربة، كيف ذلك؟ تجيب:

ــ لأنه يحبني أنا، ولا يحبني قطعاً منفصلة، حين يحب شعري فقط، سيستبدلني بشعر أخرى أفضل مني ذات يوم، (تسكت قليلاً ثم تضيف) إنه يحب منديلي!

سألتها بمزيد من الفضول:

ــ وما أدراك أنه لا ينظر، ولا يستحلي شعر غيرك، وجسد غيرك؟

ــ سأعرف ذلك من عينيه!

يدان وقدمان أنهكهما التشقق، وجه دبغته شمس السواحل، وصوت متعب، كتلة من البؤس في شكل إنسانة اسمها سلطانة.

ماذا تعرف شهد عن سلطانة؟

ماذا تعرف حتى عن شمائل أختها؟

وماذا تعرف عن الرجل الذي تتقاسم معه الحياة؟ وأنجبت منه صبياناً وبنات؟ وتصرف من ماله الذي تظنه مالاً طهوراً تَدُرُّ به تجارة الأجواخ!

ماذا تعرف..؟

□□□

سافرت مع «نوا» إلى باكستان أيضاً.

كان يريد أن أنجز تقريراً يهزُّ العالم من أجل أن تتحرك منظمات حقوق الإنسان، ومناهضة العنف ضد المرأة.

أرادني أيضاً أن أحقق نجاحاً يجذب إليَّ الأضواء، لأنه شعر بفتوري، واستحساني لحياة البذخ.

وفتوري كان قد هيّأني لحياة البذخ تلك في الحقيقة، فقد كنتُ

أنتمي لفئة الإعلاميين الذين يناضلون من أجل جعل واقع العالم الثالث يتغيّر نحو الأحسن بدعم النساء وتحسين ظروف حياتهن، لكن موجة التدين الخاطىء كانت تحركهن نحو العودة إلى جحورهن القديمة، وفظاعة الحروب كانت تَزُجُّ بالناس في قواقع الخوف.

كان كل شيء يمشي عكس التيار الذي نسبح فيه.

ثم موت أبي وعائلتي، ودخول في علاقة حب لا عقلانية مع أياد، التي بدل أن تخرج بي من نفق الحزن إلى محطّة آمنة، خرجت بي إلى مفترق طرق غريب.

لقد آمنت خلال سنوات عنفواني أن القلب لا يستقر على حب حتى يجد توأمه الحقيقي، ولكني في كل مرّة كنتُ أتوه، كما كل البشر، أحبُّ وأكره، أحبُّ وأترك، أحبُّ وأنطفىء، أحبُّ وأَملّ، وشيئاً فشيئاً بلغت مرحلة «نوا»، فإذا بي أكتشف أنني مجهزة بقدرةٍ قادر لأن أكون هكذا! كما اكتشفت أن الإنسان كائن مفخخ، تزرع فيه جينات لا حصر لها ليخطىء، وحين يخطىء يجبِ أن يعاقب! آه. يجب أن أغيّر مجرى الحديثُ. فالمؤلم في هذه الحلقة، أني أردتُ أن أفهم لماذا قُتلت عائلتي باسم ذلك الدين الذي يُسمّى «الإسلام»؟ أردت أن أفهم طقس القتل في حدّ ذاته بذلك الشكل؟ فوجدتني أتعثر في رحلة البحث تلك بأياد، ثم بيروت، ثم بآل منصور، ثم بالشرق كله!

سنوات، وسنوات، وسنوات، وأنا أدور في المتاهة نفسها.

□□□

في «إسلام آباد»، قادني «نوا» إلى محكمة مضحكة!

جلس فيها رجل بلحية طويلة، وقبعة بيضاء تشبه قبعات اليهود السوداء، وقميص اختلط بياضه بالوسخ، وراح يتكلم بلغته حانقاً، مشيراً إلى امرأة مفقوءة العينين، مجلوفة الأنف، ومقطوعة الأذنين، ملفوفة برداء أقرب إلى الزهر لونه.. بالقرب منها شاب حزين وطفل في حوالي الخامسة من عمره.

لقد شكَّ الرجل في زوجته، ظنَّها تخونه مع رجل آخر، فقطع أذنيها لأنه افترض أنها كانت تسمعه بأذنيها، وفقأ عينيها لأنه افترض أنها كانت تنظر إليه، وافترض ما افترضه، وبتر منها ما بتر، ثم برّر جريمته قائلاً أنه مسلم ومن واجبه أن يغيّر المنكر بيده، ليظفر برضى الله، وينقذ شرفه.

السيدة المشوّهة التي تحمل اسم زاهدة نفت ما اتهمت به، ولكن يا للغرابة، طلب القاضي شهوداً لإثبات براءتها، ولم يطلب من زوجها شهوداً لإثبات تهمتها.

ثم تلفظ بالحكم..

فإذا بأصوات الرجال ترتفع «الله أكبر.. الله أكبر» وزاهدة التي لم يعد لها ملامح، والتي حكم عليها بالسجن في ليل مؤبد، تلمست الطريق وهي تطوق ذراع أخيها، وخرجت من القاعة بحثاً عن الهواء.

طفلها الذي لم يعرف مصير أمه، ولا مصيره ظلَّ متمسكاً بتلابيبها، وهو في الحقيقة بعد تلك المحاكمة لم يعد ابن أبيه، فقد أصبح ابن زنى كما افترض والده.

وغير ذلك همس لي «نوا» أن حكماً بالرجم حتى الموت قد يلحق بزاهدة لولا أن الزوج قام بتشويهها، فاعتبر القاضي ذلك عقاباً كافياً لها.

نساء كثيرات في باكستان تُفقأ عيونهن وتجلف أنوفهن من طرف أزواجهن بسبب الشك، وأحياناً يقتلن.

وبعد جرائم مثل هذه تكبر قامات أولئك الرجال القتلة، وينبت لهم المزيد من شعيرات الشرف في لحاهم ويصبحون ناصعي السمعة، فيمشون بخيلاء، وهم يبصقون سوائل القات من أفواههن ويبتسمون لأن العدالة السماوية رفعتهم درجة بين الناس.

□□□

أسبوع آخر في إسلام آباد، كان سيجعلني أبتلع علب أدويتي ضد الاكتئاب دفعة واحدة. غادرت إلى بيروت حتى لا أرى مزيداً من المرارات في انتظار أن يلحق بي «نوا»، ولكن «نوا» عاد إلى بغداد.

كانت مهنتي تقضم مني الكثير، وتحيلني إلى كائن مشوّه.

في بيروت أستعيد روحي، وحين أرسل تقاريري أشعر أن عبئاً ثقيلاً انزاح عن عاتقي.

أموت وأحيا في هذا الشرق على هوى الظروف. أبكي مرات وأضحك مرات، أحزن وأفرح، و..! لستُ أكثر من لعبة «يويو» في يد القدر كما يقول «نوا».

تصل تقاريري إلى الجرائد والمنظمات، ولا شيء يتغير!

هناك خلل ما في كل الأنظمة والمنظمات، لقد مللت.

في إيران السارق تقطع أذنه، أمّا في السعودية فتُقطع يده! والعداء الخفي بين البلدين لاختلاف مذهبيهما في تطبيق الإسلام، كثيراً ما استوقفني: لماذا هناك سارق في بلاد تعتمد هذه القوانين الصارمة؟

فلا أجد جواباً.

نعم، لا جواب، فالمسلمون في هذا الشرق الشاسع يقطعون أذن السارق، أو يده، ويقطعون أنف الزانية، ويفقأون عينيها، أو يقتلونها مرة واحدة، ومع هذا أغلب السكان يعتاشون في الخفاء من السرقة والزنا والمال الحرام.

بمجرد وصولك إلى المطار تستقل سيارة يسرقك سائقها لأنك أجنبي، وفي فقهه «المقدس..؟؟» تجوز سرقتك لأنك لست مسلماً، ثم يتناوب عمال الفندق على سرقتك بطرق مختلفة، وأنت تستسلم لهم تماماً كما يفعل «نوا» وتتركهم يتحاذقون عليك، ويسرقونك برضاك، وحتماً ستردد مثل «نوا»: «إنهم مساكين، وفقراء ولا يمكنهم أن يعيشوا حياة لائقة دون أن يحتالوا عليك».

تمنحهم بعض الدولارات الزائدة، فيسيل لعابهم مثل كلاب الصيد. يُقَبِّلُون تلك الدولارات ويرفعون رؤوسهم نحو السماء لشكر الرب، ويبحثون عن ضحية جديدة.

□□□

في بغداد يعتمد «نوا» في تنقلاته على سائق أمين اسمه «لؤي» أحضر له حذاء من نوع «تيمبرلاند» وأهداه له.

www.mlazna.com-RAYAHEEN

بعد أسبوعين عاد لؤي إلى ارتداء حذائه القديم المهترىء، وحين سأله «نوا» لماذا لا يرتدي حذاءه الجديد، أجابه أن أحدهم سرقه من المسجد حينما كان يصلي صلاة الجمعة.

«نوا» قال: يجب أن تتوقف عن الصلاة في المساجد يا لؤي، أو صَلِّ وحذاؤك في قدميك!

لؤي أجاب: أين سيهرب السارق بحذائي، سأجده، وسأقطع له يده!

وذات انفجار عنيف، كان يتنقل هو و«نوا» بين الجثث والجرحى، فلمح حذاءه بين الأشلاء، انتزع الحذاء من الجثة، وابتسم:

ــ أرأيت؟ إن الله لا يضيّع أجر المحسنين.

ثم أضاف و«نوا» ينظر إليه مدهوشاً:

ــ سأنظفه من الدماء، فيصبح جديداً!

ثم قلب الحذاء وأراه حَرْفي اسمه محفورين على الكعب وقال بزهو:

«أرأيت كم أنا ذكي، هو هو حذائي، فلن أقبل أبداً أن آخذ حق أحد»!

يقول «نوا» أشياء كثيرة، في الغالب تُحدث حفراً في رأسي! أشياء صحيحة وخاطئة في الوقت ذاته، كأن يقول: «توقفي عن انتقاد الشرق، إنه الحب الذي يقتل!»، وكأن أقول له:

الشرق لا يحب.

فيقول: لا، انظري إلى أرضه كيف هي معطاءة، انظري لشمسه، انظري إلى شعوبه كيف هي شابّة ويافعة..

ثم يضيف: هناك خطآن ما يا ماغي، فلا يمكن للشرق أن يكون هكذا؟

ويفرد الخريطة أمامه، وتبدأ رُوحه بالتنزه بين شعابها..

ــ هنا المعادن يا ماغي!

ــ هنا البترول يا ماغي!

ــ هنا الذهب يا ماغي!

ــ هنا الأنبياء، والحكمة، وأسرار الخلائق كلها!

ــ هنا مركز الأرض يا ماغي!

لا تكفُّ سبابته عن القفز بين هنا وهناك..

ولا تكفُّ روحه عن التحليق في مدارات وهمية، مركزها هذا الشرق.

ثم ذات صباح..

باغتني الشرق بخطفه!

بدت صورته شاحبة على الشاشة، وصوت أجش يعلن أن مختطفيه لهم مطالب سياسية.

بيروت لا يفوتها خبر كهذا.

تبصقه في وجهك ساخناً، إن لم يكن حارقاً، حتى يشوّه ملامحك. توعكتُ وأنا أسمعُ الخبر طازجاً.

فقدتُ قدميَّ ويديَّ، وتحوّل رأسي إلى طبل.

فقدتُ صوتي، ونسيتُ الأحرف التي تكوّن الكلمات والجمل.

وقلبي الذي كنتُ أظنه قد خلا من «نوا» أصبح يعُجُّ به.

اشتقته فجأة، وبدت لي خلافاتنا صغيرة وتافهة.

وبدا لي، لو أنَّ دوامة خطفه تنتهي سألتحم به إلى الأبد، ولن أنفصل عنه حتى أموت! بدا لي أني سأشقُّ ذاتي نصفين، وأزرعه في داخلي، وأتركه يعيش هناك إلى الأبد.

بدا لي أيضاً، أن أي حبّ يمكن إنقاذه حين يفتر بعملية خطفٍ كهذه.

ضاقت بيروت عليَّ!

ضاق الفندق الفخم عليَّ!

والبحر الذي كان يمصُّ توتراتي رفض حتى النظر إليَّ!

كان معادياً، وغاضباً..

وأنا أجلس قبالته على كورنيش المنارة، وهو يزمجر، ويقذف بموجه عالياً، وأنا التائهة بينه وبين حزني، لم أعد أفهم هل الموج الرمادي الذي يضرب الصخور موج البحر أم موج السماء؟

موج الرّيح أم موج الحزن؟

أم موج الشوق؟

أم موج الوهم الذي يُشعرنا حين يفوت الأوان بما كُنّا نملكه؟

□□□

يومان أو ثلاث، والموج بأنواعه يلهو بي، ليلة عند أوليفيا، وليلة عند شمائل! هل كنتُ أعرف ماذا أفعل؟

أوليفيا أولاً.. ذهبتُ إليها بحثاً عن دواء للفقد.

قضينا الليل نثرثر، أو بالأحرى «تثرثر»، وهي تروي النّعيم الذي لم يكتمل لها مع كمال. فظلّت لَوْعَتي مكانها، تتسلّق العراء الذي تركه «نوا» في داخلي.

في الصباح الباكر غادرت الجبل.

لم أكن حانقة ولا رائقة!

كنتُ حزينة على نفسي أكثر من ذي قبل.

وخفتُ كثيراً..

خفتُ كثيراً من الوحدة!

وأن تطوّقني المصيبة وأنا وحيدة في غرفتي!

خفتُ أنْ تفتك بي، وتهشمني، ثم تعيد تركيبي بشكل مغاير.

خفتُ أن أنام وأصحو فأجد نفسي لستُ أنا.

خفتُ أن يعبث الخوف بالأشياء الجميلة التي تبقت في داخلي، فأصبح مسخاً حقيقياً، بعد أن تحوَّلتُ إلى نصف مسخ.

خفتُ كثيراً أن «أتوحشن» فأصبح ماكينة يقودها الغضب والحقد.

أردت رفقة خبرت هدوءها خوفاً من أن ينتشل قلبي المنكوب شخصٌ كيفما كان. أردت أو لم أُرِدْ، كانت حَوَاسّي اللاواعية هي التي قادتني إلى أوليفيا، وهي التي قادتني إلى شمائل في «ساقية الجنزير».

شعرتُ أني أرهقتُ نفسي بضغط إضافي عند أوليفيا، كان بودي أن أثرثر أنا، وأجد شرقاً مناسباً عندها لكل ما حدث معي.

كيف أحببتُ «نوا»؟

وكيف فترت علاقتنا؟

وكيف جعلني غيابه المفاجيء أتأرجح بين حبه ومقته؟

يا للغرابة! شمائل استوعبتني أكثر.

صوتها القادم من مئات الكتب التي التهمتْها أيقظني بعنف:

ــ تشعرين بتأنيب ضمير تجاهه؟

بقي السؤال مثل صدى أجراسٍ في رأسي يتكمد ويبتعد، ثم فتحت عينيَّ لأرى شمائل تتأملني بهالات الحزن حول عينيها وتبتسم فسألتها:

ــ ولماذا أشعر بتأنيب ضمير؟

أجابت، والكلام يخرج من بين شفتيها الجميلتين وأسنانها المتناسقة، الناصعة البياض مُشِعاً وواضحاً:

ــ لأنه إن مات، سيموت وجوعه إليك سيظل ديناً عليك. لأنك أنتِ من ابتعد وليس هو. لأنك لم تفهمي جيداً جحيم عمله، وأنك الآن فقط حين ابتلَعه ذاك الجحيم أدركت أنك وحدك كُنت جَنَّته ونعيمه المؤقت. يأتي إليك ليأخذ أنفاساً صالحة للحياة، ويعود ليقتحم النيران.

شمائل الصغيرة الحجم، ذات العينين الواسعتين القاتمتي السواد، أدركت بسرعة غريبة أين يكمن جرحي، ولكنها لم تقترح أي حل، قالت مرة أخرى وهي تتأملني بالنظرة نفسها:

ــ لا تسألي أحداً فيما يخصك. تصرفي حتى يندثر القلق المخيّم في داخلك لتُشفي مِن الأحاسيس الواهمة.

كانت مفارقة غريبة أن ترشدني تلك اللبنانية الصغيرة إلى ما يجب فعله.

حين عادت ابنةُ شمائل من المدرسة، أدركتُ أن الشرق سرق مني الكثير من السنين. لقد أصبحتُ صبية جميلة، ممشوقة القوام، وتضع عدسات ملوّنة. في الشرق تمتلىء أجساد البنات بسرعة، وتكتنز، ولكن شيئاً من براءتهن وطفولتهن يختبىء بين الملامح.

جاء الحديث عفوياً بعدها حول ابنتها:

ــ لماذا لم تتحجب؟ سألتها.

ضحكت شمائل وأجابت:

www.mlazna.com-RAYAHEEN

ـ أنا لستُ شهد!

قلت:

ـ ظننتكِ ستفعلين.

[في صغري (بدأت تسرد) كنتُ أظنُّ أن حجابي سيميزني عن الأخريات، كنتُ أظنُّ أنَّ منديلي دليل على عفتي وطهارتي ونجاحي، وبشكلٍ ما ظننتُ أنني الأقرب إلى الله من بين صديقاتي، كنتُ أصلّي أكثر منهن، وأُمي تثني عليَّ وتُؤكد أن الله راضٍ عليَّ، إلى أن جاءت الحرب، باغتنا القصف ذات يوم ونحن في المدارس، ركضنا نحو الملاجىء مع أساتذتنا، انقسمنا مجموعات واخترت بكامل وعيي الأستاذ «متوكل» لأظلَّ معه، كان متديناً وكنا نعشقه نحن المحجبات!

خلال القصف أمسك بيدي وراح يركض بي.

صوت القنابل حوّلني إلى صمّاء، وكان خيط الحياة يربطني بيده فقط.

هو يركض، وأنا أركض.

ثم وجدتني معه في نفق تحت الأرض. وجدتني في حضنه، أرتجف كهرّة جرفتها السيول. ثم لا أدري ما الذي أصابه.

قلبني بحركة عنيفة، ورفع عني جلبابي، ثبت فخذي بركبته، وانقضّ على عنقي كذئب مفترس، راح يعضني، وأنا أصرخ، شعرت بيده تمتد إلى ثيابي التحتية، ثم شيء حادّ يخترقني يُمزّقني تمزيقاً يذهب ويجيء، ثم يذهب ويجيء وأنفاس كالقنابل

تنزل على عنقي، يده اليمنى تطبق على فمي، وهو ينهال على فرجي بالقصف، صوتي ينبعث من جوفي كصدىً لا معنى له وسط القصف، وخوف طويل وثقيل جثم عليَّ ولم يغادرني، حتى حين لملم الأستاذ متوكل عضوه وبنطاله وفرَّ من النفق، حتى حين أغلقتُ الجرح بفخذيَّ المنكسرين، وحتى حين عدتُ إلى البيت جريحة، مجرّدة من العفة والشرف، وحتى حين أقسم والدي أن يقتلع عينيه أمامي ثم يقتله.

خوف طويل وثقيل، حتى حين أحضره أمامي والدي وحاكمه على طريقته.

كانت الفوضى تعمّ بيروت.

أرسل في طلب شخص اسمه «الزعيم»، زمَّر زمورين فخرجنا إلى ساحة البيت، كان متوكل يقطر عرقاً، وقد تورّم وجهه من الضرب، رماه زعران «الزعيم» أمام قدمي والدي، فراح كالكلب يُقبل حذاءه ويستعطفه: «والله غلطان، سامحني مشان الله والله غلطان، سامحني مشان الله..» لكن والدي قذفه بقدمه وركض إلى المطبخ ثم عاد وهو يحمل شوكة أكل، تقدّم منه فأمسكه زُلَم «الزعيم»، فقأ والدي عينه اليمنى فخرجت من فمه أصوات تشبه عواء الذئاب، فقأ عينه الأخرى، فصار صراخه مزيجاً من الاستعطاف والتألم «اقتلني... مشان الله اقتلني...».

والدي الذي تحجرت كل عواطفه في تلك اللحظة، وضع كومة من المال في كفّ الزعيم وقال له: «خذوه على شي حرش مقطوع واربطوه، خلّوه يعرف شو يعني الخوف والضعف وسلب الكرامة قبل ما يموت الأخو الشرموطة».

لُمْلِمَ الموضع كله بعدها. أخذني والدي عند طبيب شاطر، وأعاد عذريتي، لكن حياتي كلها تغيّرت وتفكيري كله أخذ منحى آخر.

إلى اليوم أتساءل لماذا لم يحمني الله من متوكل؟ كنتُ نقية، ومؤمنة، وطاهرة؟ كنتُ صغيرة في مقتبل العمر، فلماذا ذلك الاختبار الباكر في حياتي؟

لم أجد الجواب، ولم تُقنعني كل الأجوبة التي أجدها بين الفتاوى، وبين الكتب التي تُنتسبُ للدين. مفتي السعودية وقتها قال إن المغتصَبة زانية؟؟

ماذا يعرف المفتي عني ليحكم عليَّ بفتواه أني زانية؟

فقط قانون والدي كان الأصح، أعاد لي الاعتبار المعنوي الذي فقدته. وحتى أمي أخفى عنها الحقيقة، فحين اصطحبني إلى الطبيب أول مرة، عدنا إلى البيت وقال لها بنبرة مطمئنة «الحمد لله، البنت سليمة» وصدَّقت أمي، وبعد عملية الترقيع تلك صدَّقتُ أنا الأخرى، لكني أصبحت أكثر حذراً، رميت الجلباب، وأصبحت أرتدي «بناطلين» الجنز، مع زنار جلدي متين، القميص لإخفاء تفاصيل جسدي من الذئاب، والمنديل أيضاً.

أبي كان حنوناً الله يرحمه بقدر ما كان شديداً، وكان دوماً يردد «الدين مش هون (مشيراً إلى منديلي) الدين هون (مشيراً إلى ما تحت المنديل)».

هذه حكايتي مع الحجاب يا مارغريت. لئن ربَّت المرأة أبناءها ليكونوا مثل الحيوانات، فإنهم بالغريزة سيعرفون الأنثى، سيمزقون حجابها سواء كان أسود، أو أزرق أو ملوناً،

وسيغتصبونها، ولئن ربتهم على الأخلاق والعفة، فسيرون في كل أنثى الأم والأخت والرفيقة، وكائناً يتساوى معهم في الاحترام، هذا كل شيء.].

صمتٌ طويل!

همس. همس. همس.

بوح. بوح. بوح.

كبّرت المآذن.

دقت الأجراس.

غنّى إبريق الشاي.

لحناً بالنعناع.

ابتسمنا معاً، أنا وشمائل.

حين رفرفت حمامةٌ من على المئذنة المجاورة وانبعث النور من الكنيسة البعيدة!

قالت: «هناك من يشعل الشموع هذا المساء هناك..».

كنتُ أرى الأنوار خلفي تلاحقني وأنا مغادرة، لكني لم أفكر بشيء سوى «بنوا».

ألغيت كل مواعيدي القادمة.

وسافرت إلى العراق.

□□□

بغداد في تلك الصبيحة الربيعية سنة ٢٠٠٦ مدينة تعيش بدون شمس. لقد سبقت العالم إلى عصر الظلام.

السائق الذي أوصلني إلى فندق «رمزي» في شارع الخليل، حيث يقطن الصحافيون ظلَّ صامتاً طيلة الطريق، ينبعث القرآن من مذياع سيارته، بصوت خافت.

الطريق من المطار إلى ذلك الشارع الكئيب دام قرناً.

شِختُ وأنا أترقبُ رؤية ذلك الفندق، وحين رأيته شعرتُ أن شعري قد أصبح أشيب بالكامل، وأن أسناني هَرِمَت، وأنني قد أحتاج لعصاً أتكيء عليها لأترجل للفندق.

بغداد موحشة ومريضة!

شارع الخليل يعج بأطفال يتسولون:

ــ بليز دولار (يتراكضون حول السيارة ويمدُّون أيديهم لي).

ــ سيدتي، دولار واحد فقط، سيدتي!

السائق لا يبالي، كأنه منحوتة مبرمجة. كيف حظيتُ به؟؟

□□□

في الفندق تبعثرت على السرير منهكة من أفكاري.

رائحة البارود تنبعث من المخدّات والملاحف والشراشف وكل شيء.

النوافذ مظلمة. السماء موحشة أكثر مما توقعت!

ماذا أفعل هنا؟ تساءلت.

تتلاقفني الأرض، وتقذف بي المطارات، أبحث عن حقيقة لا وجود لها؟

ــ في بغداد؟

ــ هل أنا في عقلي؟

حلَّ الندم عليَّ فجأة، إذ لم أفهم ما بإمكاني فعله في بلدٍ يغلي كله. لقد كانت الطريق نحو الفندق موحشة ومخيفة، ورائحة البارود التي تملأ الجو أيقظت الكثير من الذكريات الجارحة في داخلي!

ــ انفجار شرم الشيخ!

ــ موت أبي!

ــ متاهتي الشرقية التي لم تنته.. وها أنا في بغداد أتعقب آثار رجل مخطوف.

رجل آخر يصنع قدري.

جَرَّني «نوا» إلى بغداد كما جرَّني أياد قبله إلى بيروت. أفعل ذلك مخدَّرة بذكرى شرم الشيخ، ولا يهم أن أتجرَّع الخوف يومياً في ذلك الشرق. عشتُ قلقاً ثقيلاً في بيروت بدءاً برعب الطيران الإسرائيلي الذي يباغت المدينة كل بداية صيف، فيقصف موسمها السياحي..

www.mlazna.com-RAYAHEEN

ورعب الطائفية النائمة تحت سطح شفاف وهشّ.

وحتى رعب المصاعد التي تتوقف فجأة حين تنقطع الكهرباء، عشته، وتحمّلته.

حين نمت بعد ساعات طويلة من التفكير استيقظت مرعوبة.

رأيت في الحلم رجلاً يشبه المسيح يخطفني، يطير بي من سماء إلى سماء، ثم يلقي بي في بحيرة!

ملمس الماء كان بارداً، ظننته حقيقياً، حين استيقظت كنت أتصبب عرقاً. الجو كان خانقاً في تلك الغرفة، ولون الهواء رمادي، كانت أشبه بغرف الإعدام.

خرجت وجلستُ في البهو الصغير أمام موظف الاستقبال، دخنتُ سيجارة، ثم سألته عن «ميتش كويبالت» الذي يُفترض أن يكون المصور الصحافي الذي طالما عمل مع «نوا».

أجاب بسرعته ودون أن يفكر أنه لا يعرف. حراس الفندق يدخنون بصمت، وبعضهم كأنه ينظر إلى عالم آخر تماماً، يقفون بأسلحتهم المتأهبة لإطلاق النار، وأرواحهم يلهو بها الهواء الساخن وكأنها غسيل منشور. ملوّنة، ومختلفة الأحجام، وجافّة. جافة جداً.

في غرفة صغيرة يفترض أن تكون «البزنس سنتر» يجلس صحافي أمام جهاز كومبيوتر يحرر مقاله.

كان فرنسياً، عرفت ذلك بسرعة من لهجته الإنكليزية التي تخرج من فمه مشدودة وضيّقة بحرف «الآغ»، فحدثته بالفرنسية:

ــ ميتش كويبالت!

ــ لقد تبعثرنا بعد أن قُصف فندق الشيراتون!

ــ أعرف (قلت له)

ثم سألته عن «نوا»!

ــ «نوا»؟؟

كان مندهشاً، عيناه تحولتا إلى بحر ابتلعني.

□□□

مضت خمسة أيام وأنا أدور في المتاهة نفسها، ويومان بأكملهما بقيت خلالهما محجوزة في الفندق بسبب العاصفة الرملية.

في اليوم السابع، اتصل بي «ميتش»! لقد عرف شيئاً.

انطلقنا نحو وجهة ما.

رمى لي في السيارة غطاء أسود ارتديته، وطلب مني أن أغطي وجهي أيضاً.

كل النساء في الشارع الذي اخترقته سيارتنا ملتحفات بالسواد.

الغبائر تغطي كل شيء حتى وجوه الأطفال.

الهواء له رائحة.

ليست برائحة البارود هذه المرة، ولكنها رائحة الدم.

قال «ميتش» إن الموضة تلك الأيام هي تفخيخ الكلاب وتفجيرها.

ــ هنا!.

أشار بيده، وقال إن كلباً فُجِّر منذ يومين هناك، البيان الذي تبنَّى التفجير أعطى اسماً وهمياً لمنتحر فجَّر نفسه، لكن التحقيقات، وشهود العيان الذين لم يروا إلّا الكلب، بحزام غريب يحمل المتفجرات قالوا غير ذلك.

ــ قبل أيام (أضاف «ميتش»): فُجِّر مجنون هنا أيضاً! يُفَجِّرُ المجانين، والكلاب، والحمير. حين تنضب «ذخيرتهم» من الشبان القادمين من المغرب العربي ودول أخرى من أجل الجهاد.

«ميتش» قاتم السُّمرة أيضاً، لأن أصوله مكسيكية وقد دخل مهنة التحقيقات لتغطية الحروب في الشرق الأوسط والخليج وشرق آسيا منذ مطلع التسعينيات.

يقول لي مازحاً:

ــ ألا أبدو عراقياً؟؟

فأجيبه مبتسمة: تبدو كذلك فعلاً!

ينقلني إلى موضوع آخر:

ــ مات لؤي، سائق «نوا» وهو يحاول الهرب من المختطفين الذين أمطروه بوابل من الرصاص!

صمتَ قليلاً!

صفنتُ..

ثم أضاف: عرفت اليوم أنه ترك لي رسالة!

□□□

توقفت السيارة أمام بيت ككل تلك البيوت، ودخلنا بعد طرقتين.

استقبلتنا سيدة أربعينية محجبة، ذات وجه مضيء بشكل غريب وسط غرفة معدَمة خالية من الأثاث تقريباً.

أخرجت من جيب جلبابها الأبيض ظرفاً صغيراً وشيئاً ملفوفاً في قطعة جلد، وأشارت له أن يذهب بسرعة.

ــ إنها ابنة عمه زهراء!

في السيارة عرفت أن «لؤي» كان حذراً أكثر من «نوا» لأنه ابن بيئته، أوصى صديقاً له أن يرسل رسالة إلكترونية إلى «ميتش» بعد موته بشهر تماماً.

احتوت الرسالة على عنوان زهراء التي أخفى الظرف عندها قبل أن يتورط هو و«نوا» بشيء ما.

في الظرف كلمات بخط استعجالي: «قضية اغتيال الدكتور محسن النويري» ثم خريطة مرسومة بالخط نفسه، وأسماء أماكن، قال «ميتش» إنها في الجانب الشرقي من بغداد! في قطعة الجلد «فلاش ديسك» صغير.

أخرج دفتراً صغيراً، ونقل ما في الورقة بالحرف الواحد. رسم ذلك

المخطط الذي يشبه الخريطة أيضاً، ووضع الورقة في يدي طالباً مني أن أُبقيها معي.

بلغنا فندق رمزي بعد أن قطعنا طريقاً طويلة من الخوف. رميت الغطاء الأسود عني وتركته في السيارة ولكن «ميتش» لملمه ورمى به على صدري وقال:

«هذا سلاحك الأول هنا!

ثم أضاف: يجب أن تغادري هذا الفندق. لا يعطيني «ميتش» فرصة للتفكير، كان يعطيني أمراً ويبدأ في تنفيذه.

تقدّم بسرعة من موظف الاستقبال وطلب منه الفاتورة لإخلاء الغرفة.

فتح جهازي الكومبيوتر في الغرفة، وأمرني أن ألملم أشيائي.

دقائق قليلة، وفتح الملف ثم نسخه عنده.

كنتُ أسأله، ولكنه لم يكن يجيب، كأنه مصدوم بحقيقة ما، ثم نظر إليَّ وقال بصوت هارب:

ــ يجب أن تغادري بغداد!

ــ No way!

صرختُ في وجهه!

ــ إنها قضية كبيرة يا ماغي، كبيرة جداً!

ــ و«نوا»!

ــ «نوا» بالتأكيد قتل، لا يمكن لصحافي مخطوف من طرف جماعة سياسية أو دينية أو حتى جماعة لصوص أن تحتجزه لأكثر من أسبوعين دون أن تعلن مطالبها.

الحقيقة، أنني لم أكن أرغب في المغادرة ولا حتّى في الاستماع إلى نصيحة «ميتش».

أردت أن أعرف مصير «نوا» قبل أن أغادر..

وفي قرارة نفسي تمنيت أن أجده وأعتذر له عن برودي!

أنا امرأة متقلبة المزاج، متقلبة الرغبات، متقلبة القلب أيضاً!

أحب وأكره.

أتحمس وأفتر.

أحياناً أفكر، وأحياناً أخرى لا أفكر.

وكثيرة هي الأشياء التي بدأتها ولم أنهها، لنقل أني مللت منها في منتصف الطريق.

يتعبني أن أتتبع خيط قضية تمتد، وتتعثر، وتتكسر، حتى أملّ!

يتعبني أن أفقد شيئاً في غفلة مني، سأظل أذكره إلى الأبد، يحرق في نفسي، كأنه مكسبي الوحيد والثمين! و«نوا» كذلك، حين اختُطِف فجأة. لعلّي ــ لو أُجِّلَ اختطافه لبعض الوقت ــ وجدت رجلاً آخر يحلُّ محلّه.

فمنذ زمن بعيد لم أعد المرأة التي يربطها رجل إلى أنانيته وأهوائه.

ولكن «نوا» فعل ذلك بي، حين غادرني فجأة قبل أن أغادره أنا.

يظنُّ «ميتش» أني وفيّة جداً لـ «نوا»، وقد كان صعباً عليَّ أن أشرح له مشاعري المعقّدة، ومغامراتي التي لا معنى لها.

□□□

في فندق «الميريديان» المطوّق بالحواجز والحرس، تناولنا العشاء أنا و«ميتش» في غرفتي، وفيما كنا نحلُّ الألغاز التي تركها «لؤي» والتي كانت نسخاً عن تسجيلات صوتية، وأسماء، وأرقام، فاجأته بسؤال هزَّ كيانه، ولعلّه غيّر صورتي كاملة لديه:

ــ كيف يمكنني الحصول على كمية من الأحجار الكريمة هنا؟

«ميتش» تحوّل إلى قردٍ صغير تركته أمه وسط الأدغال، نظر إليَّ والحيرة كثيفة كشعر القرود على وجهه، وعيناه امتلأتا بظلام مفاجيء.. أين البياض؟

أنا شريرة شقراء، أو شبه شقراء، بشعر قصير، وعينين تشتعل فيهما النار باستمرار وفي رأسي مدخنة، تنفث الدخان في العالم الداخلي الذي أعيش فيه في الغالب ولا أرى فيه الأشياء واضحة، كما يراها القرد البريء.. «ميتش»!

تغاضى عن السؤال كأنه لم يسمعه!

وأنا... هززت كتفي، ثم أردفت:

«إذا لم نجد «نوا» لن أعود فارغة اليدين إلى بيروت...».

بدا متضايقاً، فهوَّنتُ عليه الأمر:

ــ إنّي أمزح!

رسم ابتسامة على وجهه، لكن مزاجه لم يتغيّر!

بلغنا أطراف بغداد الشرقية، بعد صراع مرير مع الحواجز والاكتظاظ.

رائحة العرق البشري والغبار والبارود تتجوّل في الأجواء كأنها كائنات مرئية، الجنود الأميركان مرات، والشرطة العراقية مرات أخرى.

الخوف ينتابنا أكثر كلما اقتربنا من بزاتهم المتشابهة، يقفون للتفتيش وكأنهم ينتظرون ملاك الموت، يتفحصون الوجوه المحشورة في السيارات، ويمررون أجهزة تافهة لم تحمِ قوافل الموتى الذين يصعدون إلى السماء كل يوم إثر التفجيرات.

أنظر إلى الصف الطويل الذي يشبه قدراً مخيفاً، وأتأفف.

«ميتش» يضغط على أسنانه، ويهمس:

ــ صبراً.

أخرج قارورة العطر من حقيبتي، أفتحها وأنا أتخيّل نفسي أمارس طقساً من طقوس الصبر، فأقرّبها من أنفي من تحت النقاب وأغمض عيني.

www.mlazna.com-RAYAHEEN

أسافر مع النسائم المنبعثة من القارورة إلى الشق الآخر من الكون، وأعود في لحظة. كان ذلك آخر حاجز نقطعه، وبعده بقليل اهتزت الأرض بانفجار قوي.

التفت «ميتش» خلفنا، فيما تكوَّمتُ على ركبتيَّ لأختبيء. أوف.. كيف خطر ببالي أن ذلك قد يكون مُجدياً؟

ردَّد «ميتش»:

ــ إنه بعيد عنّا بكثير! قد يكون في «الطالبية». بمعنى آخر، إن الانفجار كان قوياً جداً ليهزّ الأرض ولا نراه.

السائق لم يهتز، ولم يقل شيئاً!

□□□

أمام تلك المساحة الشاسعة من الرمال، رُسِمَت حدود بالأسلاك الشائكة في رقعة معينة. داخل المنطقة المطوقة خيمٌ بُنّية صغيرة، ومبنىً غريب، بدا مهجوراً للوهلة الأولى، وعلامات تحذير، أكبرها على المدخل: «خطر مواد إشعاعية»!

ــ لماذا تُرَكَّبُ الكاميرات على منطقة إشعاعية؟ سألته وأنا أشير إلى كاميرا مركّبة بإتقان في إحدى الزوايا.

ــ سؤال في محلّه. قال «ميتش»!

وقفلنا راجعين.. لَا لَمْ نرجع إلى قلب بغداد، ابتعدنا على الأطراف فقط في انتظار الليل. وفي خلال ساعات الانتظار الغريبة تلك، عاودني الندم لأني جئت إلى بغداد، وسخرتُ في داخلي

من الوهم العاطفي الذي يحركني في كل مرة، فأركض في إثر رجل، ثم أتيه بسببه في عوالم لا تخصُّني في شيء؛ خوف، وغضب، وحزن، وبكاء، ومضيعة لأجل سنوات عمري، إن لم يكن للوقت الثمين الذي أهدانيه الله ولم أصنع خلاله شيئاً ذا قيمة.

في لحظات متأخرة من النهار، والغروب يرمي بأثوابه الملونة على بغداد، بدأت ذاكرتي تحدث الفوضى التي أكره، وتخرج الصور القديمة من رفوفها.

أمي، ثم أخي أسعد، ثم أبي..

ثم القاهرة!

ــ مثل هذا الغروب، نراه خلف الأهرامات! تمتمت.

ــ تلك الخيم في «أراضي الطاقة» تُخفي سِرَّ «نوا»، يقول «ميتش» وعيناه ترصدان المكان، كنّا على أطراف منطقة «السبع قصور» التي لا «سبع» فيها ولا «قصور».

رائحة الأوحال والأوساخ تصل إلى أنوفنا في تلك الساعة المتأخرة من النهار.

الأشباح تتسارع لتختبيء في أوكارها، أراها من بعيد فترعبني.

«ميتش» يتنفس بصعوبة، يخرج البخاخ، ويرش رشتين في حلقه.

السائق ابتعد نحو تلة، وبدأ يصلّي. أصوات المآذن جاءت خافتة كأنها متعبة!

في القاهرة رأيت المنظر نفسه، حين كُنّا نزور العم بهاء، كنتُ أخرج مع ابنه شوقي، ونراقب «عمّار» وهو يصلي، نرميه بالحجارة فلا يلتفت، نتضاحك، ونختبىء، ونكرر رميه بالحجارة، وهو خاشع، مسافر في ملكوت الله.

يقول شوقي إن «عمّار» لا يختلف عن حجارة القصر وأشجاره، لا يتغير، لا يكبر، لا يشيخ، فمنذ بدأ يتذكره، وهو على هيئته تلك.. أحياناً فقط كان يسعل من كثرة التدخين! ثم حين توفيت زوجته، تزوج بأخرى قبيحة، ولئيمة وشابة.

العم بهاء قال «مسكين عمّار، جاب مصيبة على بيته».

بعد سنة، كتب لي شوقي رسالة طريفة، أخبرني فيها في ما أخبرني أن عمّار الجنائني مات!

خطر ببالي أنه مات بسبب زوجته.

غيوم القاهرة نفسها تحوم في سماء بغداد، تحملها طيور غريبة مثل شِباك الصيد، وتزين بها السماء. الهواء ساخن..

فظيع كم كان يشبه أنفاس «نوا»!

□□□

حلَّ الظلّام، فاقتربنا قليلاً.

ركنّا السيارة، وترجّلنا. الكفن الأسود الذي أرتديه يعثرني.

ــ هل أخلعه؟ سألتُ «ميتش»!

ــ ما مشكلتك معه؟ إنه يجعلكِ قطعة من الظلام، أجاب حانقاً!

لم يكن يفهم لماذا أتضايقُ منه، كان مسرع الخطى، ولم يكن بإمكاني أن ألحق به!

لم يقل شيئاً إضافياً، انخفض فجأة، وجعلني أنخفض معه. توقفت سيارة «فان» كبيرة، ونزلت مجموعة من الملتحفات. عشر نساء ربما أو أكثر، ثلاث سيارات أخرى عسكرية، أو شبه عسكرية، من يهتم في تلك الساعة المتأخرة ما نوع تلك السيارات التي نزل منها رجال مسلحون.. ثلاث رجال منهم متأنقون، لمعت أحذيتهم تحت الأنوار الخافتة في المدخل. لعلَّ الأنوار كانت تنبعث من الأحذية نفسها.

من أين جاء أولئك الرجال الذين لم تلمسهم غبائر بغداد؟

كان يجب أن نَجد منفذاً نحو الداخل لنعرف سرَّ «نوا»، ومجموع الأسرار المرتبطة بأكثر من مائة اسم بين عربي وأجنبي، وما معنى «حقل البذور الذكية» الذي عنون به «نوا» قائمته، وعلَّم به خريطته، وأوصلنا به إلى هذا المكان؟ عن أية بذور يتحدث؟

في لحظة غير مبالية أيضاً، وأنا منبطحة على الأرض بالقرب من «ميتش» سخرتُ من نفسي بصوتٍ ظلَّ حبيس رأسي: «لماذا أرتبط دوماً برجال بلا عقل؟؟». رائحة التراب كانت نقية، عكس الهواء. دخلت إلى رئتي وأيقظت أموراً خلتها ماتت، وتلاشت في الماضي؛ ربما كان عمري اثنتي عشرة سنة، ربما أكثر، لكنني أبدو في الذاكرة البعيدة فتاة صغيرة جداً. جداً أمام عمي رئيف الذي جاء لزيارتنا في عيد الشكر، وبدوتُ أمامه مثل «عقلة الإصبع» مثل كشتبان، حملني بيد واحدة، وغرس الأشواك التي تغطي وجهه

على خدّي، الرائحة التي انبعثت منه كهذه، كتراب العراق.

أبي قال «هذه رائحة الضيعة». تحسست الأشواك على خدّي بيدي ومسحتها، ثم غسلتُ وجهي جيداً منها. ذهبت الأشواك، الرائحة لم تذهب أبداً.

□□□

لم نعرف أن نتسلّل إلى الداخل، فعدنا إلى قلب بغداد. ثم مضى يومان و«ميتش» يتحرّى بطريقته، وجاء صبيحة الخامس عشر من آذار/ مارس يخبرني أنه وجد من سيساعدنا للدخول.

شاب اسمه «عروة»، قال «ميتش» إنه يتقن استعمال السلاح، ولن يقضي نصف وقته في التّعبُّد كما كان يفعل «سيف»، وكأنه غير معني بالحياة الدنيا، حيث صعدت إلى المقعد الخلفي بالسيارة الجيب التي لا لون لها، غمرني فرح مفاجيء وخطر ببالي أنه حين يراني «نوا» سيكون واثقاً من شجاعتي.. ولن يسخر مني بعد اليوم.

في اللحظة التي تلت ذلك الشعور الجميل تسارعت ضربات قلبي، وانفجر شيء ما. الانفجار كان في داخل رأسي هذه المرة. إنه شعور بالخوف، فماذا لو مات «نوا»؟؟

□□□

في مبنى آخر، بين زقاقات أعياها القدم، التقينا البروفيسور «شنيدر»، لم أستنتج شيئاً من ملامحه أو لهجته، فلا هو عربي ولا هو أجنبي.

دخلتُ مع «عروة» فيما تركنا «ميتش» على بعد زقاقات بلا نهاية. هذه المرة هو الذي سيصلّي مثل «سيف» ويبحث في ملكوت الله عمّا يلهيه حتى نعود.

كان يظنُّ أننا سنعود!

قبل أن تستقرّ رصاصة وحيدة في رأسه، ويسقط البخّاخ من يده.. إلى الأبد. لم أعرف أن «ميتش» قُتل، وكيف لي أن أعرف ذلك، وخطّتنا التي رسمناها معاً، تفرض علينا أن نذهب في اللعبة حتى النهاية.

لحظتها لم تخطر ببالي جملة الحاج عبد الله زوج شهد وهو يقول لي: «أنتم الأميركان تطبقون خططكم على أراضي الناس، متناسين تماماً أن هؤلاء قد يفاجئونكم بخططهم الخاصة التي لم تكن لديكم في الحسبان».

لم أستفد من تجربة حياتي مع عائلة آل منصور في بيروت، وإلّا لأدركت أن المشي خلف رجل عربي مثل «عروة» لا يوصل للحلول بل لمزيد من المصائب.

مدَّ يده السمراء التي تقاطعت فيها أثلام البؤس للبروفيسور وصافحه، ثم أخذ ظرفاً مختوماً، لن أعرف أبداً أنَّ فيه ستة آلاف دولار، هي ثمني بعد الخصم. ولن أعرف أبداً أن رحلتي إلى العراق انتهت، وبالمقابل، سيبدأ الشوط الأخير من رحلتي في الشرق، وبعدها سأبدأ حياة جديدة ومغايرة.

بالفعل ظننتُ لوهلة أنني وقعتُ ضحية تُجّار الرقيق، الذين يفتحون أسواقهم حيثما تكون الحروب، لكن، وبعد أن غادر «عروة» المكان

www.mlazna.com-RAYAHEEN

بعد إتمام صفقته، وقبل أن أتصرّف أي تصرُّف غبي، كأن أصرخ مثلاً أو أحاول الهرب، أو أشتمه وأشتم أمه وأنا أسأله ماذا فعلوا بي، فاجأني البروفيسور بابتسامة واسعة وكلام جدّ مهذب، وهو يرحب بي:

ــ آنسة مارغريت، أنتِ ضيفتنا إلى أن تعودي إلى نيويورك سالمة، بدون أي خدش.

ــ لم أفهم (قلت له).

بالطبع لن أفهم شيئاً، ولن يخطر ببالي أني أصبحت جزءاً من مشروع «حقل البذور الذكية» منذ تلك اللحظة.

في المساء، أصبحتُ واحدة من عشرين صبية أجنبية بعضهن كنَّ مقيمات في العراق، وبعضهن مثلي قادتهن أقدار مختلفة، من بلدانهن، ليكنَّ هنا، نتوجه جميعاً نحو مبنى «الحقل».

الصبية التي بقربي رومانية، رمتها الأقدار إلى شارع «المعاملتين» في بيروت الشرقية، وبين ليلة وضحاها تحوَّلت من عازفة كمان راقية، إلى بنت ليل، يضاجعها الرجال العرب الذين حوَّلهم الكبت إلى حيوانات.

يأتي صوتها خافتاً ومبللاً من تحت النقاب الأسود، عيناها لا تبكيان، تنظران إلى سقف السيارة وتصفان الصور التي تمر في الذاكرة.

ــ ... إلى أن جاءت فرصة «حقل البذور الذكية»، سأُمنح فرصة للرحيل إلى أميركا وهناك سأبدأ حياة أفضل بكثير من نكسة

بيروت (تختم كلامها). في الصالون الكبير الذي لم نبق فيه طويلاً استرجعت وجه «شنيدر» وهو يقدم لي أوراق خلاصي مع قلم صغير، مزخرف يظنه الرائي للوهلة الأولى أنه «بكلة شعر».

ــ لكني أريد معرفة مصير «نوا»؟ قلت له. فأجاب:

ــ لو كنتُ مكانك لفكرتُ في مصيري فقط! هل تعرفين يا آنسة نصر، لماذا نحتاج لحروب خارج أوطاننا، وتحديداً في بلدان كهذه؟

أسمع صوته، وأراه، يتحدث بصوت واثق وهادىء فيما الأرض تدور بي عشرين ألف دورة حول الشمس في تلك اللحظة، وهو يُقرّب الأوراق أكثر نحوي، ويمدُّ لي «القلم البكلة».

ــ «نوا»، اختار مصيره يا آنسة نصر، قلنا له إن مشروعنا سلمي، وإننا نُنْعش سلالات أميركا بما يجعلنا الأقوى، لكنه أصرَّ على نواياه السخيفة لكشفنا، من يهمه إن قُتِل عالم ذرة في العراق، أو عالم كيمياء أو رياضيات؟ العراقيون أنفسهم لا يهتمون بالأمر، حتى إن خبر موتهم قد يُنشر في زاوية مهملة في جرائدهم، وقد لا يُنشر، العالم العربي كله يقتل أدمغته، ونحن نتألم لهذا الوضع.

لا أدري لماذا يتحدث وعيناه لا ترمشان كأنه آلة!

في أعلى تلك الأوراق: أنا الموقعة أدناه.. في الأسفل على الشمال اسم: البروفيسور «وليم حبيب شنيدر» وتحت الاسم توقيعه. على اليمين اسم المريضة: مارغريت نديم نصر. وقلم ينتظر تحته..

وصوتُ البروفيسور الذي اتضحت لي بعض معالم هويته، يواصل، إلقاء محاضرته:

ــ نعطي لهؤلاء الأذكياء فرصاً لا تُقاوم ليعيشوا بيننا، ويدعموا المشروع الأميركي ولكنهم لسبب عاطفي غبي يبقون هنا، تقتلهم أنظمتهم شيئاً فشيئاً، وتحوّلهم مجتمعاتهم الغبية إلى أناسٍ عاديين، يتخبطون في حياة يومية لا معنى لها، هذا فعل إجرامي يا «ماغي».. عفواً.. آنسة نصر، هذه الشعوب تقتل كل شيء، العقول الذكية، البشر، الحيوانات، الشجر، الحجر... الأفكار المعنوية، حتى الهواء يقتلونه.

يضرب بقبضته على الطاولة أمامي فأرتجف في مكاني، ويواصل حديثه وأسنانه تصطك بعضها ببعض، قبل أن يسترخي قليلاً، وتعود الابتسامة الباردة إلى ملامحه وهو يقول: «نحن سنعطي الحياة لهذا العالم الذي يتعاون الجميع على قتله، نأخذ حيواناته المنوية، ونزرعها في أرحام نساء يُقدّرن هذه الأدمغة، ونمنحهن حياة هادئة عندنا، نحقق لهن حلمين متلازمين، حلم الأمومة المتفردة، بحكم أنهن سيلدن أطفالاً فائقي الذكاء، وحلم الرعاية الدائمة والحياة الرغيدة التي لن يجدنها بالركض خلف رجال لا يعرفون قيمة الحياة القصيرة التي ننعم بها».

كنتُ قد وقّعت الأوراق قبل أن يختتم كلامه! وفي الصالون الواسع الذي كنا نجلس فيه كانت السيدة الأميركية التي بقربي متوترة وقلقة، قالت إنها حلمت هي وزوجها بطفل يملأ حياتهما طيلة ستة عشر عاماً، وإنها اليوم ستحقق حلمها بزرع نطفة ذكية في رحمها، كانت تظن أنني جئت إلى بغداد للسبب نفسه، كما ظنت الصبية الرومانية أنني جئت لأسبابها نفسها أيضاً، خاصة وقد قلت لها إنني جئت من بيروت!

الشرق غريب، غرابة الحياة كلها.

من هنا جاءت كل الفلسفات التي تجعل الناس يقتلون بعضهم بعضاً من أجل الله، كأن الله قابع على عرشه، وينتظر الرؤوس التي تطير، ليرضى عن القتلة. أفهم الأطماع البشرية الأخرى التي تجعل الإنسان يقتل أخاه الإنسان من أجل الثراء أو التوسع أو الحصول على مزيد من المكاسب.

لكنني لا أفهم كيف يقتل شخص أخاه من أجل الله؟ هل لحماية الله من شرّ المقتول؟ أم لحماية المقتول من عقاب الله؟ هراء!

الله الذي خلق هذه الصحارى، والبراري والأكوان والبشر، تُراه بحاجة إلى حماية؟ يا للمخلوقات الغبية، المسكينة! وأنا أراها من فوق، حين أرتقي بروحي إلى موقع القمر، أراها كائنات كالنمل تحمل أسلحة تشبه عيدان القش، وتحارب، ظناً منها أنها تحمي الله الذي من شدّة عظمته لا نراه!

□□□

جاء دوري،

وهنا تعرفت إلى الدكتور محمود..

كان ملفّي كاملاً بين يديه.

ــ سنرى يا مارغريت مرحلة الإباضة عندك..

أوكي؟

قال «أوكي» والتفت إليّ مشيراً أن أخلع عباءتي السوداء، وأستلقي

على طاولة الفحص!

صوته كان مختلفاً!

عادة، للأطباء سحر خاص، وهم يرتدون المآزر البيضاء، وأظافرهم مقلّمة ونظيفة، وأيديهم طرية، وهدوؤهم غريب وهم يتكلمون.

عصر السائل اللزج على بطني، ووضع ماكنة التصوير.

ــ هذا المبيض اليمين. هل ترين؟ وهذا الشمال. انظري يمكنك إنجاب عشرة أطفال إن شئت.

تغزّل بمبايضي، وهذا غزل فريد من نوعه، لم أسمع مثله من قبل.

يبتسم، ويتأمل الصُّورة على الشاشة كأنّه يشتهيها:

ــ يا للمبيض الجميل، انظري مارغريت!

إلى ماذا يجب أن أنظر؟ بقع سوداء، وبيضاء لا غير. كنتُ أتأمل وجهه.

ــ ألا تنزل قذائف هنا؟

لم أكمل سؤالي، قاطعني مبتسماً وهو يضع أوراق الكلينكس على بطني.

ــ نحن في منطقة خارج دائرة الحرب.

ــ لكننا في بغداد، لسنا بعيدين عن المدينة.

ــ ألا تستغربين أحياناً كيف يُدمَّر بلد بأسره فيما رئيسه، ووزراؤه يطلُّون من على شاشات التلفزيون، ويدلون بتصريحاتهم من قصور جميلة، ومنابر تلمع؟

ــ أوه. لم أطرح السؤال على نفسي.

ــ لأنهم خارج دائرة الحرب.

ــ ونحن هنا خارج دائرة الحرب؟ سألته:

هزَّ رأسه أن نعم وهو يرمي قفّازاته في الزبالة.

العيادة فخمة.

الأروقة نظيفة، المبنى مضاء من الداخل لكنه بدون نوافذ.

ابتسم الدكتور محمود وهو يودعني، ورجل آخر اسمه محمد يتقدمني ليوصلني إلى غرفتي.

وأنا أمشي خلفه، في الرواق المضيء الذي لا نوافذ له، شعرتُ أنَّ هذا ما فعلته دائماً، كنتُ دوماً أمشي خلف رجل في رواق بدون نوافذ، ولعلَّ هذا أهم اعتراف لي على هذه الأوراق!

لكني وأنا أمشي خلف محمد هذا، لم أكن أعرف لحظتها أنه سيكون آخر رجل أمشي خلفه، وأن حياتي بعد ذلك ستخرج من أنفاق الرجال إلى حياة الله الواسعة.

www.mlazna.com-RAYAHEEN

محمد الذي تولّى الاهتمام بي طيلة فترة إقامتي في المستشفى، كان من أولئك الرجال العرب الناضحين بالفتنة. كأنه أختير فقط لإغوائي. الرجال ذوو الأجساد المليئة، واللهى المهذبة، والوقار الذي يمنحه التدين، ويجعل امرأة مثلي تملك أموالاً وسلطة، وخبرت الدنيا من كل جوانبها، كائناً من الدرجة الثانية يمنع لمسه إلّا في حالتين، إمّا أن تكون له المرأة عشيقة سرية يسرق اللذة منها ومعها بعيداً عن أنظار الناس، أو أن تكون له زوجة مملوكة، يمتلكها بعقد يوقعه أمام شيخ وشاهدين، ويصبح بإمكانه أن يستثمرها لتُكَوِّن له عائلة، وتدير أمور بيته الصغيرة، التي في الغالب لا تتعدى أمور مأكله ومشربه وملبسه. أمور سطحية لن تلمس أبداً عمقه وروحه. سيمتلكها، وتظل روحه تحلق في فلك آخر، وتظل روحها تحلقُ في فلك آخر أيضاً.

حين قدّمني الدكتور محمود لمحمد، مددت له يدي، فزمّ يده إلى صدره واعتذر أنه لا يصافح النساء. فطفحت ذكرياتي في بيت آل منصور على السطح، وشعرت برغبة في التقيؤ. بقيت يدي لعدة ثوان طويلة معلّقة في الهواء، أمام ذلك الرجل الغريب الذي اتخذ مني موقفاً لأنني أنثى.

ــ لماذا لا تصافح النساء؟ قلت بنوع من الحدة!

ــ الأمر لا يتعلق بك شخصياً، إنه تنفيذ لأمر إلهي.

ــ يأمرك الرب ألّا تصافحني، وألّا تصافح أي أنثى تصادفها.

ــ الله (صحَّحَ لي) الله.

هكذا بدأت أحاديثنا، وهكذا ظلّت خلال لقاءاتي به، حين يراقب حرارتي، أو ضغطي، أو حين يحضر لي وجباتي.

ــ ما الذي يحدث لك إن صافحت امرأة؟

يتظاهر أنه لا يسمعني.

ــ متى توقفت عن مصافحة النساء؟ بالتأكيد كنت طفلاً، وكنت تصافحهن، ثم أصبحت مراهقاً، وقمت بأشياء كثيرة يقوم بها المراهقون.

يقاطعني:

ــ الأمر لا يعنيك.

ــ هل أخطأت في يوم ما مع امرأة بمجرد أن صادفتها، لامست يدها، فإذا بالشهوة تسري في عروقك، وإذا بعضوك يخونك وينتصب أمامها، يا إلهي أليس لديك عقل يتحكم في غرائزك الطليقة هذه.

قال: كفّي عن مضايقتي.

وخرج.

ظننته لن يعود ولكنه عاد.

قادني إلى الدكتور محمود ليتمّ تلقيحي، في اليوم التالي.

كانت العملية بسيطة، استلقيت على طاولة الفحص، ثُبتت قدماي جيداً، وأنزلت مؤخرتي حتى الحافة.

أمام عضوي ضوء قوي، ووجه الدكتور محمود وهو يمرر الحقنة الرفيعة عبر مهبلي إلى عمق رحمي، ثم يضخّ النطاف.

ــ حَبَلٌ بلا دنس! قال.

ثم أضاف:

ــ الجنس رحمة ربانية أليس كذلك؟ (صمت قليلاً ثم أردف) من حق المرأة أن تشعر بالمتعة والسعادة، قبل أن يبدأ جسدها بالتغيرات، الحبل متعب، الوحم، المخاض، الولادة المؤلمة..

ــ نعم، قلت له، الجنس رحمة، لكن من يعرف؟

نمت نوماً عميقاً، بعد عملية التلقيح، أظن أني أعطيتُ منوماً، لأنني لا أذكر كيف عدت إلى الغرفة.

□□□

صمتٌ عجيب يخيّم على المكان.

صمتٌ منذ وصلت، وباقي النساء لا أثر لهن، «كل في غرفتها» قال لي محمد.

ــ لماذا لا يرسلون لي ممرضة؟ سألته:

ــ أولاً، ليس لدينا عنصر نسائي، أنت هنا تحت رحمة الرجال (أضاف بلؤم ثم تفحص بعينيه الواسعتين ردة فعلي قبل أن يضيف):

ثانياً: أنا لست ممرضاً!

اختفى اللؤم من عينيه، أصبح مخيفاً، وهو يضع فطوري على الطاولة جانباً.

كان سيخرج، لكني أوقفته بسؤالي:

ــ لا تصافح النساء، ولكنك تعمل في مؤسسة تُهرّب نِطاف أبناء بلدك في أرحام نساء أجنبيات، إلى أميركا، تطعمهن وتهتم بهن، وتتقاضى مرتباً على عملك هذا وتظنه مالاً حلالاً لا يحاسبك عليه الله.

جاءني صوته هادئاً، وهو يمسك مقبض باب الغرفة، ووجهه نحو الباب، وأنا لا أرى غير قامته، وشرر ينبعث من رأسه.

ــ لماذا لا تسكتين؟

أجبته:

ــ كوني ساكتة، لا يعني أن هذه الأفكار لا تدور في خاطري، نصف أبناء بلدك أنفسهم يفكرون كما أفكر، ينظرون إلى أمثالك كنماذج غريبة، تحولت إلى آلات بلا روح، وبلا عقل، آلات مبرمجة. لا يمكنها أن تحافظ على توازنها الطبيعي خارج شيفرة البرمجة تلك.

لا يزال واقفاً، يولي لي ظهره، لكن نبرة صوته تغيرت.

ــ في نظري أنت المبرمجة على نمط معينّ من الحياة، أنا تحررت منه تماماً، كأني سمعتُ «طقّة» المفتاح تتخلّلُ كلماته، ثم استدار، وتقدَّم نحوي ومدَّ لي يده قائلاً:

ــ تريدين أن تعرفي طقوس اللمس؟

نظرتُ إلى عينيه وهما تفرزان سُمّاً قاتلاً، تقدَّم مني أكثر، فإذا بيده ترتفع وتهوي على وجهي. الأشياء في رأسي تبعثرت، ذقني تحركت من موضعها، وألم فظيع اخترق أذني واستقرّ في عمق رأسي.

لم أره يخرج من الغرفة.

صعقةُ برق نالت من عينيّ لحظتها، تلاها تلاشيه من الغرفة.

خرجت مثل المجنونة أركض في الرواق وأصرخ.

الرواق فارغ، وطويل، وصدى صوتي يزداد حدة.

أنفاسي سريعة ومزعجة، تخرج من أذني.

لا أحد في المبنى!

كنتُ محتجزة لوحدي ولم أعلم.

□□□

لا خارج في المكان.

هناك داخلٌ مضيء، مغلق الأبواب، بدون نوافذ. كان هناك نساء يشغلن الغرف المجاورة لغرفتي، لكن الغرف فارغة الآن!

في لحظة ما، خُيّل إليَّ أنني أحلم، وأنّي قد أستيقظ في لحظة ما، وأجدني في فراشي، في غرفتي في نيويورك، وأن ما عشته، ليس أكثر من حلم شرقي غريب.

حلم بألف ليلة وليلة، ولكنه غريب عن حكايا شهرزاد.

هذا شرق محمد يا مارغريت! (قلت لنفسي).

شرق الحياة التي لا تُصَدَّق!

شرق الخيال المؤلم، الجارح، الذي يخدش ويترك نُدَباً.

شرق له رائحة الدماء والبارود، بدل الشرق الذي كان له عبق البخور.

شرق «الحبل بلا دنس» لا شرق الشبق وقصص الحب، والعفاريت، والجن، والطغاة الذين يهزمهم الحب!

شرق الشرّ الذي لا نهاية له، لا شرق الخير الذي ينتصر كما في القصص البريئة التي لا علاقة لها بما يحدث على الأرض.

الشرق الذي لا فرق بينه وبين مغارة «علي بابا والأربعون حرامي».

www.mlazna.com-RAYAHEEN

شرق السبايا، والحريم والغنائم النسائية.

شرق الموت الأحمر، والخوف الذي يرقص في الشوارع.

شرق الجرائم التي ترتكب باسم الله.

وشرق الصمت، وليد الخوف من لغة الخناجر والقنابل والسياط.

شرق التخفي واختلاس الحياة اختلاساً، شرق الأقنعة التي تخفي الملامح والحقائق.

شرق لا حيلة لك فيه، ولا خلاص، كهذا المبنى الأبيض، المضيء، الذي لا تشرق فيه الشمس ولا تغرب، لا زمن فيه، لا وقت فيه، لا أيام ولا أشهر، ولا سنون!

شرق يدفن رأسه تحت الأرض، وينتظر على هامش الحروب التي تدمره متى ترنُّ أجراس السلام ليرفع رأسه!

شرق يمر زاحفاً على أوجاعي، ويقضم أسئلتي السؤال تلو السؤال، ويبصقها دون أجوبة على وجهي.

شرق لا يرميني تماماً، ولا يحضنني تماماً، لا يحبني، ولا يكرهني، أو ربما يريدني ولا يريدني، يحلم بي لامرئية أحياناً، وأحياناً مرئية.

شرق أناني يتعاطاني كالممنوعات، ملفوفة مثل غرامات الكوكايين في أوراق صغيرة تباع في السرّ.

شرق يرفض قلبي الذي ينبض، وروحي التي تحب أن تحلّق في السماء، وتغتسل بضوء الشمس ونور القمر.

شرق. كانت الشمس منذ بدء الخليقة تشرق منه، لكنها بعد كل هذا الغبار الكثيف، تمرّ عليه مرور الكرام وتطيل الغروب. تغرب طويلاً قبل أن تعاود المرور.

شرق لا أدري كما أراده الله أو كما أراده البشر؟

□□□

ساعات مرت.

يوم أو يومان..

وأنا بين القلق والفزع وغفوات التعب مرمية في الرواق قرب الباب يمصُّ البلاط دفء جسدي.

أقدام رجل أمام وجهي، توقظني بركلة خفيفة. ثم أيدٍ قوية تجرُّني، وتدخلني إلى غرفة من تلك الغرف وتجلسني على كرسي، ثم يبرز الوجه الذي أعرفه، واللحية التي اشتهيتها وخذلتني، والعينان الآسرتان.

يدخل مثل زوبعة تقلب كل شيء رأساً على عقب، ويخلعُ الجاكيت، ثم الساعة، ثم يطوي أكمام قميصه إلى فوق، ويبدأ باستجوابي:

ــ ما الذي أتى بك إلى بغداد يا مارغريت؟

كنتُ غاضبة، ومتعبة، وجائعة، وبحاجة للنوم، أجبته:

ــ أنت حقير.

فطار وجهي من على كتفي.

إنها الصفعة الثانية من يديه!

صوته أصبح هادئاً أكثر وهو يخاطبني:

ــ هذا ليس الجواب الصحيح على سؤالي يا ماغي، هل أصوغ السؤال بطريقة مغايرة؟

صرخت في وجهه وأنا أبكي:

ــ ماذا يحدث هنا بحق السماء؟

الصفعة الثالثة!

وقعت أثرها من على الكرسي، وارتطم وجهي بالبلاط.

صوت الصفعة يرنُّ في أذني مثل رنين الأجراس، عيني تؤلمني، كأنها اقتلعت من مكانها. لمستها بيدي أتفقدها إن كانت لا تزال في مكانها. آخُذُ نَفَساً وأخاطبه بحقد أكبر:

ــ كيف لرجل يحترم نفسه أن يخاطب امرأة بهذا الشكل؟

يرمقني متأملاً ضعفي ثم يجيبني:

ــ إنها المساواة سيدة مارغريت، هذا جوابي فهاتي جوابك أنت، ما الذي أتى بك إلى بغداد؟

زحفتُ نحو الجدار، واتكأت عليه، وبقيت جالسة على الأرض، أتحسس عيني، والألم الذي يتوزع في داخل رأسي.

كان يقف أمامي واضعاً يديه في جيوبه، ويومئ أنه ينتظر، ثم انخفض إليَّ، وكرَّر السؤال بطريقة أخرى:

ــ مارغريت، كُنتِ في بيروت، ثم باكستان، ثم دارفور، وها أنت في بغداد تنتمين لمنظمة مشبوهة تسمى «منظمة إنعاش مشاريع نساء العالم الثالث» تُجَنِّد نساءً من العالم الثالث لمحاربة الإسلام.

ــ غلط، (صرخت في وجهه).

ــ وما الصَّحُّ، سيدة مارغريت؟

ــ جئت بحثاً عن «نوا» صديقي.

ــ «نوا» الجاسوس الأميركي؟

ــ إنه صحافي (قاطعته) وليس كل صحافي أميركي جاسوساً كما تفكرون.

ــ وأنتم (قال بحدّة) كيف تفكرون؟ ألا تفكرون أن كل مسلم تتعثر به أقدامكم إرهابي؟

ــ لستُ كذلك، و«نوا» أيضاً.. نحن نعمل من أجل السلام.

ــ إذن ماذا تفعلين في مؤسسة كهذه؟ أيتها الذكية التي تعمل من أجل السلام؟ كل النساء اللواتي يدخلن هنا يأتين رغبة في الخلاص، يقدمن لنا خدمة، ونقدم لهن بالمقابل الخلاص الذي يرغبن فيه، إلّا أنت، لم يكن هدفك أن تحبلي بنطفة ذكية، وتغادري إلى أميركا، وتنجبي طفلاً ذكياً وتكوني مواطنة صالحة هناك.. أنت جئت من هناك يا ماغي، عمّ تبحثين هنا؟

بكيت مجدّداً، وأنا أجيبه:

ــ جئت أبحث عن «نوا».

ــ ماغي، امرأة هشّة مثلك، تبكي بعد صفعتين امرأة لا يمكنها أن تأتي إلى بغداد بحثاً عن عشيقها. امرأة تملك أموالاً وميراثاً جيداً عن والدها، لا يمكنها أصلاً أن تحب رجلاً قذراً مثل «نوا»، وتذهب بحثاً عنه في بغداد، علماً أن علاقتك به كانت منتهية في بيروت. ما رأيك يا سيدة السلام؟

ــ حين بُثَّ خبر اختطافه، تحركت مشاعري نحوه من جديد، إنها أشياء لا تُفَسَّر، أما هذه المؤسسة فلم تكن في حسباني، السائق الذي شغّله «ميتش» هو من أوصلني إلى هنا، «ميتش» قال إن سرّ اختفاء «نوا» موجود هنا.

ــ «ميتش»؟؟ (أجاب وهو يهزُّ رأسه) رئيسك المباشر في الشرق الأوسط.

ــ «ميتش» مصور (قاطعته).

يمسكني من شعري، ويجرني إلى الطاولة، يلقي بي عليها وأنا أتحسس ثقله وهو ينخّ على ظهري، رائحة العود تنبعث منه، وتجعل إيلامه لي لذيذاً، يلوي ذراعي نحو الخلف، ويفرغ صوته بفحيح أشتهيه في أذني:

ــ جاويي!..

لماذا اشتهيته؟

لماذا اشتهيت قسوته، وظلمه، ورائحته؟

ــ لا أدري..

هو الآخر كان يجهل ما يجول في خاطري، ولعلّه لم يفهم أني امرأة تمشي على دروب من المشاعر اللامفهومة وأنه يثير شهوتي بكل ما خبرته يوماً. كنتُ أرتجف خوفاً ومتعة تحت ثقله، وأتلذّذ بتلك اللحظات المتناهية في الصغر وهي تُعَمِّد قلبي وكياني في بركة من الخوف واللذة معاً..

كانت ساقاه تلامسان ساقيَّ، ومؤخرتي تستقر تماماً على موضع عضوه، ودفء جسده يتسرَّب إلى جسدي، وهو يضغط عليَّ، ويستمرُّ في طي مرفقي وشدِّ شعري. أنفاسه برائحة النعناع.. وهو يلهث ويصرخ في أذني أن أجيب.

لا أدري لماذا أجبته:

ــ لن تأخذ منّي كلمة أيها الحقير.

كنتُ أستفزُّه ليكون شرساً أكثر.

أدركت ذلك وأنا أشم رائحته التي تملأ المكان، وشرر عينيه يحدث صوتاً كرعود ليلة ماطرة. كان الليث يزأر بمحاذاتي، وأنا أتلوى في الداخل من المتعة.

ذكورته التصقت أكثر بمؤخرتي، وبدأت تنتصب.

كنتُ أشعر ببنطاله يتشقَّق، وتلك الصلابة تتدفق مثل الزرع الرَّاغب في الهواء.

تحرَّر شعري من يده.

تحرَّرت ذكورته.

بحثت يده عن قفل الشهوة بين فخذيَّ.. غرس أسنانه في رقبتي، وأطبقها. تأوهت ألماً أو متعة لا أدري..

ــ افتحي رجليك.

قال!

ــ لا. (قلت صارخة)

عضني مرة أخرى..

ــ افتحي قلت!

ــ لا..

لوى مرفقي بقوة أكثر، وأطبق أسنانه حتى لامست العظام!

فتحت!

وشقَّ الليثُ طريقه نحو أعماقي، يخترق الزلال الذي سال من أجله.

حرَّر مرفقي، وهزّني نحوه بحثاً عن نهدي، مددت يدي واحتضنت رأسه من الخلف، رفع القميص وحمالة صدري، وأمسك بالحلمتين، عصرهما عصراً.

كان جسدي كله ملكاً له، وذكورته تقصف في أنفاق فرجي، وتدمّر الأسوار التي لم يعرف أن يقتحمها غيره. يذهب ويجيء. فترتطم بيضتاه بما حول أسواري، فأهوي رغبة به:

ــ نيكني نيكني لحتَّى تطلع روحي!.

مطر غزير يهطل من جبينه على طرف وجهي، يروي عطشاً كان يفتك بي ولم أشعر به.

كان يدخل ويخرج، يدخل ويخرج، ويعصف بي من كل الجهات.

يعيد تشكيلي، وصياغتي.

يقتلع الطحالب التي نمت على حواسي منذ ولدت.

ـ خذي أيتها الأميركية المدللة!

كان يردد!

وأنا ما عاد لي عقل يفكر، أردت أن أكون له إلى الأبد، وحين سحب قضيبه مني، توسلته أن يبقى، رمى بي على الأرض، وهوى عليَّ من جديد، كانت عيناه حقولاً خضراء لا نهاية لها، حقولاً مضيئة، تلهو النسمات بسنابلها. تغيرت نظرته، احتويت وجهه بكفيَّ وقبّلته!

وبدأت أهدأ مثل نهر مجنون يصبُّ أخيراً في البحر.

ـ اشتهيتك مُذْ رأيتك من أول نظرة.

ـ مخادعة (قال)..

وقضيبه المنتصب، يغازل عانتي، وفرجي يصرخ، وقد تحوّل إلى فاكهة طازجة تريد من يقضمها.

تناول حلماتي، فَسَرَت قشعريرة اللذة في كامل جسدي.

طوّقته بقدمي، وساقي، أردته أن يلجني من جديد، ولكنه ظل يلامسني ملامسةً، يشعلُ مزيداً من الحرائق في مساحات اليباس التي أعياها القحط في داخلي. لاعبني حتى أعياني، وعاود إيلاجي، حتى أرداني هالكة من اللذّة.

ثم تدفّق في داخلي، غزيراً، دافئاً، ولذيذاً يملأني حتى أعمق نقطة في داخلي، قبّلْتُه مرة أخرى..

أكانت تلك قُبلة؟

من كان يعلم ما كانت تلك؟

شفاه رجل، أم سحر ساحر؟

وذاك الرُّضاب الشهي، ينفجر كنبع جبلي نقي في فمي، وشعيرات شنباته ولحيته تسيج محيط شفاهي وكأنها سياج لحدائق النعناع التي تسكن أنفاسه.

قذف نطافه في رحمي، وبدأت ذكورته تنكمش، وفرجي المتمسك بها يرتعش، والرعشة من هناك إلى أصابع قدمي، إلى قمة رأسي تحدث بي الزلازل التي غيّرت كل تفاصيلي.

احتضنته..

احتضنني..

وحين رفع رأسه وهو ينظر إلي، انتابتني رغبة عارمة لأمصّ عرق جبينه، عرق بارد وحلو.

عرق كندف الثلج التي كنا نتلقفها بألسنتنا ونحن صغار.

عرق يطفىء الرغبة، ويشعلها.

عرق نقي، نقي، نقي... مثل مطهّر جرّف روائح رجال عبروا جسدي ولم يتركوا أثراً.

رجال يضاجعون، ويعرقون عرقاً عفناً، ويقذفون ماءً عفناً، وتصبح روائحهم بعد ممارسة الجنس مقرفة.

طوّقته بكل ما أوتيت من قوة وقبّلته، كان يبتسم وهو يهمس لي:

ــ لقد اغتصبتك للتو.

ضحك، وبانت «فلجة» أسنانه، وحقول القمح التي تتمايل في عينيه.

لقد مارستُ الحب للتو (قلتُ له). اعتدل على ظهره، رميت برأسي على كتفه وحضنته. طوّقني، وراح يلهو بشعري القصير.

وبدأت أسرد له حكايتي من أولها.

□□□

أراد أن نوثق، فوثقنا.

أحضر لي رزمة من الأوراق، وأقلاماً وطلب مني أن أكتب، وحين أتعب من الكتابة، أطلبه، يغلق الباب خلفه، ونتنايك.

أودُّ وهو يمسّ أعضائي معساً أن أكون له وحده.

أودُّ لو أنني أستطيع أن أشُقَّ صدري وأزرعه في داخلي.

أودُّ لو أنجب منه أطفالاً كثيرين، يشبهونه، يتدفقون من رحمي بعد أن يغرسهم بذلك العنف في تربتي، وألدهم بعد مخاض عسير.

أريد ألماً، يوصل روحي إلى عتبة الموت، ولا تَعبر.. أريد أن أبلغ

معه أقصى قمم اللذة، حيث ينقطع الأوكسجين، وأتوقف عن التنفس.. ثم ينفث روحه في داخلي فأعود إلى الحياة حبلى به.

ــ نعم.. (كنت أجيبه في آخر التقرير).

ــ أنا بين فكيْ تمساح قلتُ له، يجب أن تقتلوني، لأن المنظمة ستقتلني حتماً.

ــ لا. (قال)

ــ نحن لا نقتل النساء!

كنتُ في حضنه، مغمضة العينين، أسبح في ملكوته العابق برائحة العود والبخور، مُطلقة العنان لدموعي وهي تغسل صدره!

ــ لماذا غيرت رأيك؟ (قال)

فأجبته هذه المرة صادقة:

ــ بسبب رائحتك، لك رائحة نقية، لك نقاء خارق.

ــ تبالغين (قال، ووجهه الشرس غائب تماماً)!

ــ ولكني لم أبالغ، فقد كنت أكره، وكل ما فعلته سابقاً كان بحكم الكراهية، وها أنا أحب اليوم، وبين الكراهية والحب لا فرق، فالمشاعر التي بينهما هي التي لا تحدث التغيرات، وحدها الكراهية والحب يقودان العالم.

أطبق محمد ملفي أمامي، وكتب عليه «العميلة رقم ٥٥» وكتب تاريخ ذلك اليوم، لعلّه كان الثامن من أيار/ مايو ٢٠٠٦.

□□□

في الطائرة التي توجهت بي إلى القاهرة أسترجع آخر حديث جرى بيني وبينه، وهو يقول أشياء كثيرة بعينيه.

ــ نعم، أنا يتيمة حرب، كفّر بي أبي بالتبني نديم نصر عن ماضيه، باع أطفالاً، وأطفالاً خلال السنوات الأولى للحرب الأهلية في لبنان، وحين التقى «ناني» وأغرم بها، وتزوجها، اكتشف أنه عقيم، هذا ما حدث، كما تحدث الأسرار الغريبة في هذا الكون دون أن نفهم منها شيئاً.

كنتُ أنا وأسعد أخي آخر يتيمين في جعبته، ألغى الصفقة مع زبونة.. وحملنا إلى أميركا هارباً.

وما أتذكره في الخامسة من عمري على أنه صور لبيروت، وكورنيش تُزينه أشجار النخيل، لم يكن سوى صور غير واضحة للإسكندرية، كنتُ رضيعة حين وجدني نديم نصر مع أخي، في أحد المخيمات، ننحدر من عائلة فلسطينية.

□□□

جُنِّدْتُ في «منظمة النسور السوداء» بعد انفجار شرم الشيخ، وأُرسلتُ إلى الشرق الأوسط تحت غطاء منظمة نسائية تدعم مشاريع إنمائية، كانت مهمتنا أن نقمع أي بوادر للنهضة في

المنطقة، وكنتُ عنصراً فعّالاً في مشروع «حقول البذور الذكية» الذي نجح معنا بشكل مدهش في بيروت، وأردت أن أعرف لماذا فشل في بغداد. بالطبع وظفتُ «نوا» دون أن يعرف بذلك ووظفت «ميتش» دون أن يعرف أيضاً. كنت الرئيسة المباشرة لهما، ولم أكن مرؤوسة من أحد.

أياد منصور الذي عُرض عليه عرضٌ مغري للبقاء في أميركا وتطوير أبحاث جادّة حول الطاقة النووية، فضّل أن يعود إلى بيروت، لم يعرف أبداً أن نطافه كان يزرع في أرحام نساء ذوات قدرات خاصّة، في مراكز سرّية ببيروت، وأن له أكثر من عشرين ولداً سيكونون في المستقبل عقولاً أميركية ذكية بلا جذور تعثر مسيرتهم المرغوبة، أو تربطهم ببلدهم الأصل.

لم يكتشف أياد أبداً عقّار مسح الذاكرة الذي كنتُ أدسه له في المشروب أو في القهوة، وقد تركته وأغلقت ملفه، حين أصبح شخصاً غير قادر على الإنتاج.

فشلت مؤسستنا في بغداد، بعد أن حوّلها البروفيسور شنيدر إلى مؤسسة تجارية، تقبض أموالاً باهظة من الأثرياء، وحين اكتشف «نوا» ذلك فبرك له قصة الاختطاف وأرداه قتيلاً، أمّا الجناح غير المخطط له في تلك المؤسسة فهو «محمد»!

في جلسة بوحنا الأخيرة عرف كل شيء، واعترف بكل شيء:

ــ «كُنّا نغير النطاف، ونزرع حيوانات منوية ضعيفة في أرحام النساء الأجنبيات، وقد أردنا أن نحمي سلالتنا الذكية بالطريقة نفسها، ولكن ديننا كان بالمرصاد. لم يكن ممكناً أن نزوج امرأة من رجل ميت،

ولم يكن ممكناً أن نتصرّف دون أن نعرف أبعاد ما سنقوم به في المستقبل. فتح شنيدر خطاً على أوروبا لبيع الكلى والقلوب والأكباد والعيون، ومختلف الأعضاء القابلة للزرع. شجعناه على تجهيز المستشفى، وهَيَّأنا له ظروفاً لتبييض الأموال، والانخراط في عمل لا يضر كثيراً مشاعرنا. نكتفي باللعب بالنتائج والخطط. لم يكن بإمكاننا أن نوقف الحرب، لأن من يمارسونها لا يعرفون قيمة الحياة والإنسان. كنا نراوغ من أجل البقاء. نريد أن نعيش مثلكم لا غير!».

قال «مثلكم» فوخزتني الكلمة وخزاً في داخلي. لا أدري إن طال الوخز عينيَّ، فأغمضتهما، أم أنني في تلك اللحظة كنت أقف على حبل مشاعري بين الكراهية والحب، وكنت أفكر إلى أي جانب سأميل!؟

□□□

دخلت بيروت عبر ميناء «جبيل» ليلة الثلاثين من آب/ أغسطس ٢٠٠٦، كانت النار تأكل حواشيها، وهي مثل الثكلى تئن منكمشة على ذاتها، لا نائمة ولا مستيقظة. وكنتُ ببرقعي الأسود أتحرك كظل يذوب في ظلام حلَّ محلّ أضوائها الفاجرة التي أطفأتها الحرب. هدير المولدات الكهربائية التي تزوّد البيوت بالكهرباء يكسر صمت الليل.

في تلك الليلة أغمضت عيني، وتمددت على فراشي، في فندق صغير على الساحل وخُيّل إليَّ أنني أشم رائحته. تهب مُحَمَّلةً بالنعناع والعود.. ومع أنني رأيت الموج أسود، يضرب الصخور القريبة من الفندق بقوة، ورائحة الهواء تأتيني خانقة من تحت... فإنّ روحه كانت بقربي، عيناه كانتا أيضاً، حقول لا متناهية من

القمح، سنابل تلهو بها نسائم الشرق المشرق.

أنظر إليه في العتمة ولا أصدق، تراني أحلم أم أني فقدت عقلي، أرى صدره يعلو ويهبط وأصابعه تقترب تزحف على شعري القصير فيتحوّل إلى جَدائل، يمرّر يده التي تنبض حُبّاً على رأسي، فتتساقط أوراق الحزن الثقيل أكواماً على المخدة، قبل أن ترفعها فراشات مضيئة وترمي بها في البحر.

كنتُ أنظر إليه، وأودُّ أن أطبق شفتيَّ على شفتيه، وأظلَّ له، ويظلَّ لي.

ثم سرقني النوم.

وجرفتني أحلامي الجديدة إلى عالم صغير لا يحدُّه سِوَاه.

وكما الموتى الذين تتسلل أرواحهم إلى أجساد أخرى، تركتُ روحي القديمة هناك تلهو بها منظمة مشبوهة اسمها «النسور السوداء» وزرعتُ روحاً جديدة في جسدي ولدت بعد مخاض عسير من رحم الحب.

بالطبع لم يكن بقربي حين استيقظتُ، وذاك كان الوجه المؤلم لحقيقة ما عشته، لكن مع هذا كنتُ منتشية.

شمس آخر يوم من آب/ أغسطس غازلت وجهي بنعومة مفرطة، فيما خبر صاعق كان يبثّ على قناة أجنبية يقول إن الناشطة الأميركية في حقوق الإنسان مارغريت نصر عُثر عليها مقتولة في غرفتها في أحد فنادق بغداد.

مرَّ الخبر سريعاً على هامش أخبار الحروب الكبرى، بُثَّ كما لو أنه لم يبث. كما لو أنه لا يتعلق بامرأة من روح ولحم ودم، ورأسٍ سخَّرته لتحريك دُمىً مثلها لتغيير خارطة العالم، وخارطة البشر.

تاريخ من التضحيات، والأسفار، والأخطار نُسف بسطرين عن مقتلي مع صورة صغيرة على الطرف المهمل للإطار. من يهتم؟

يقال إن صانعي الحروب الحقيقيين يقفون دوماً على هامشها.

فهل كنتُ كذلك؟

وهل بإمكاني أن أتوقف عن تلك المهنة، وبذور الخوف تسكنني من الآخر؟

لا أحد بإمكانه أن يجزم بذلك، حتّى أنا! وحتى حين حطّت الحرب أوزارها في بيروت، وبدا خراب الحرب مخيفاً فيها.

كنتُ منهمكة بالتأسيس لحياة جديدة، غير عابئة مثل كثيرين بمن ماتوا، أو تشوهوا، أو بيعوا أو اشُتروا، أو هُجّروا، أو غُرّبوا..

من يهتم؟

فحين تستيقظ الحرب من جديد، ستجد في لمح البصر من يُزَوّدها بالوقود، ومن يدري، قد أخلع عباءتي الشرقية، وأدخل دائرة العنف من جديد.

تبادرت إلى ذهني أفكار كثيرة كهذه، وأنا أجلس فجراً على حافة بميناء «جبيل» أنتظر المارد الذي حوَّلني إلى «هِرَّة مسالمة» لنتلاشى

معاً في بيروت، مدينة الحب والحرب معاً.

من يعرف أنّنا فيما بعد..

سنختفي تماماً في صخب بيروت، لكننا في كل سنة، كما في تلك الليلة الصيفية المقمرة، نخرج، ونتجوّل على الميناء، نتبادل الوعود والعهود نفسها.

وكما في كل مرة سيردد:

ــ أشكر الله أني وجدتك.

وسأردد الشيء نفسه؛ مقتنعة أنه وحده كان خلاصي.

ــ ألَا تملُّ من قول ذلك؟ (أسأله)

ــ لَا. لا أَمِلّ، إني أُحبُّكْ؟ (أجيب)

ــ والله؟

ــ أُقسم..

ستظلُّ أصواتنا عند الشاطىء، تتخللها ثرثرة البحر، وغمزات القمر، وتطفّل الصيادين.. لكن من يهتم؟ سنظلُّ عاشقين!

انتهت صبيحة

الرابع من أيار/ مايو ٢٠١٠